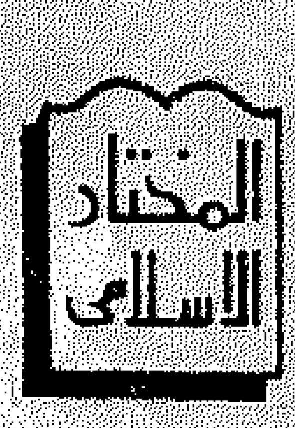
محمد علي قطب

وحّدوا الله

أول كتاب في التوحيد للأطفال





وحّدوا الله

أول كتاب في التوحيد للأطفال

محمد علي قطب

المختار الإسلامي
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ..

نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذُ به من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إلهٰ إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كُل شيء قدير .

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا « محمداً » عبدالله ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونَصَحَ الأمَه ، وجاهد في الله حقّ جهاده .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصَحْبه والتابعين بإحسانٍ إلى يَوْم الدين .

وبَعْـــدُ ..

فإن الكوْن – ياولدي العزيز – كتاب كبير ، وسِفْر ضخم جليل ، بكُل موجوداتِهِ ومخلوقاته ، بإنسانه وحيوانه ونبّاتِهِ ، بسمائه

وأرضه ، بكواكبه وأفلاكه ونجومه ، بودْيانِهِ وجبالِهِ وسُهوله ، ببحاره ومحيطاتِهِ ...

وكُلّ أُولئك صفحات !!! وآيات وعلامات !!!

وعند كُلِّ صفحةٍ يقف الإنسان مشْدود الْعَقْلِ ، مَأْسور القلْب ، يقرأ ويتأمّل ، ويفكر ويتدبّر ، ثم يتعلّم درْساً ..

ولكن ليس كُل إنسان !!!

فقط لِلّذين يُريدون أن يعرفوا ذواتهم وأنفسهم وموقعهم في هذا الوجود ، للذين يبْحثون عن الحقيقة فيهتدوا إلى سواء السبيل والصراط المستقيم ، كي لا يخّبطُوا في ظلمات الجهْل ، فيسقطوا في الدنيا والآخرة .

وأوّل الدروس ... ، وأَجْدرها بالفهم والحفظ و ... العمل ، هُو توحيد الذات الإلهيّة ، وإفرادها بالربوبية والعبودية

وكتابنا : [وحّدُوا الله] هو محاولة لشرح هذا الدرس ، نسأل الله تعالى أنْ يوفقنا إلى الخيْر والحق ، والصواب والسّداد ... ،

فتعال نَقْرأ معاً بعض صفحات كتابِ الكوْن ، ونتدبَّر الآيات ، ونُوَحّد الله !!!

* * *

المؤلف

محمد علي قُطُب (صيْدا–لبنان)

غُرَّةُ «ذي القعْدة» – ١٤٠٧هـ

الموافق[١٩٨٧/٦/٢٧]م .

« أَيْمن » و« عائشـــة »

بنيّ العزيز :

« أَيْمن » و« عائشة » أَخَوَيْن تَوْأَمَيْن ، في حدود الرابعة عشرة من الْعُمْر ، يعيشان في ظِلّ والديْهما ... ، وفي جَوٍّ أُسَرِيٍّ طيِّب كريم ، يستمدّ هناءَهُ وآسْتقراره وسعادته من الإيمان الصادق وحُسن العبادة والسلوك القويم .

* * *

الأبُ تاجرٌ .. ، ناجح في عمله ، موثوق من زبائنه

والأم ... وإن كانَت قد تعلَّمت حتى تخرجت من الجامعة ، إلاّ أنها فضّلت أن تَجنّد عِلْمها وكفاءَتها لبيْتها وأُسرتها الصغيرة ، زوْجها وأولادها ... ،

أما الولدان : « أَيْمن » و « عائشة » فقد كانا في غاية الذكاء والنباهة ، وحُبّ المعرفة ، والاجتهاد في الدرس والتحصيل .

كما كانت بينهما منافسة ... ، كلاهما يريد أن يتفوّق على الآخر ، كأنهما فَرَسان في ميدان .

* * *

أمّا أحلى وأمْتع جلساتهما . فتلك التي كانت تضمهما مع أبويهما ، حيث تشتد معركة المنافسة وتبلغ ذروتها في تساؤلاتٍ وآستفسارات ، يظهر فيها كل منهما براعته ومقدرته ، وكأنه يريد ان يُفحم خصمه !!! أوْ يغلبه !!!

أما الأب ... فيبتسم ويجيب ، لايضيق صَدره ... ولايَحْبِسَ لسانَه ...

وكذلك الأم فهى تشارك أحياناً في الإجابة ، خصوصاً عندما يكون السؤال من « عائشة » ذلك أن الفتاة تلتصق بأُمها في حنانٍ وآستعْطاف ، وكأنها تلُوذُ بها وتَستَنْصِرها ...

ولقد كانت هذه الصُّورة مَدْعاة تعليقاتٍ من « أيْمن » بكلماتٍ وحَرَكاتٍ تُغيظ أُخْتهُ « عائشة » ... مِمّا يجعلها تبكي أَحياناً ، ولكنه ما يلْبث أَنْ يُرْضيها ويمسح دُموعها ويطبع على جبينها قُبلة حنانٍ وحُب ...

هكذا كانَتْ تربيتهما ، وهكذا كان جَوُّ الأُسرة السعيدة بجميع أفرادها .

[... وَحِّد الدّايم !!]

كانَتْ أحلى الليالي وأكثرها متعةً للأخوين « أيمن » و« عائشة »: ليالى شهر « رمضان المبارك » ، وأحْلى مافيها عندهما وقْت السّحور ...

كانا يْنتظران بشوق ولهفةٍ مرور « المسحّراتي » يطلق لسانه بالتسبيح والتهليل والدعاء ، ويقرعُ « طبلته » ، فُيطلّان عليه من النافذة أحياناً ومن الشرفة أحياناً أُخرى ، ولا يجلسانِ إلى المائدة إلا بَعْد أن يَبْتعد عن منزلهما ويبْتلعه ظلام الليل .. ويتلاشى صَوْتُه .

* * *

إنها الليلة الأولى من ليالي شَهْر رمضان المبارك ، وهاهُما ذا « أيمن » و« عائشة » على عادتهما السابقة ...

فلمّا عادا من الشُّرفة ، وجلسا مع أَبَويْهما إلى مائدة السّحور ، قال « أَيْمن » :

ــ لقد لَفَتَ نظري يا – أبي – قوْل المسحّراتي : [اصْحَ يانايم ... وَحِّد الدايم] ؛ إذ إنّ مدرّس التربية الإسلامية كان يُحدّثنا بالْأَمْس عن الصّفاتِ الواجبة في حق اللهِ تعالى ومنها : البقاء ... غير

أنّه لم يَسْتكمل الحديث ... ، فَأَرْجُو أَنْ تُواصله أَنْت معي ...

قال الأب وهو ينظر إلى « أيْمن » نظرة إعْجاب – :

ـــ وهل تراني يا« أيْمن » أستطيعُ ذلك أَفْضَل من المدرّس ؟

قال « أَيْمن » :

ـــ وَهَلْ أَنْسى أَنَّك دَرَسْتَ العلوم الدينيَّة ، ولكنك آضطررْت إلى مزاولة التّجارة ... ، بسبب وفاة جَدّي الذي أوْرثك هذا العمل .

وقاطعت « عائشة » :

ـــ لقد عوَّدْتنا أَنْ تحكي لنا عن الأنبياء – عليهم السلام – ، وتروي لنا سِيرَة سيّدنا « محمد » – ﷺ – ، وتَشْرح لنا – أَيْضاً – كثيراً من المعاني والأُمور المتعلّقة بديننا الحنيف ...

فَنَظَر الْأَبُ إلى زَوْجتِهِ فرآها تَبْتسم ، فقال لِوَلديه :

ـــ حاضِر ... ، بعد أَنْ نَنْتهي من السّحور ، ونجلس بانتظار صلاة الفجرْ سَوْف أُحدِّثكما بما تشاءان .

* * *

وجلس الْأَب على سجّادَةِ الصلاة ، وتحلَّق « أَيْمن » و« عائشة » من حوْله ،

وقال الْأَبُ :

ـــ قبْل أَنْ نتحدَّث عن البقاء وغيره من الصّفات الواجبة في حقّ الله تعالى أُريد أَنْ أَسْأَل : ماذا كان يَردِّد «المسحّراتي» بالضَّبْط ؟

قالت « عائشة » :

ـــ اصْحَ يا نايم وحِّد الدايم ...

فقال الْأَبَ :

ـــ عظيم ... ، إِذاً فـ [التَّوْحيد] هو الْأَساسُ ، وهو الهدف ... ، وهو في الحقيقة قاعِدة العقيدة الدينيّة السليمة ، وعليْه فإنَّني أَبْدأُ مَعَكُما في الحديث عن التَّوْحيد ، وما الصِّفاتُ إلاّ من مُسْتَلْزِماتِهِ وُمْقتضياتِهِ ...

قال « أَيْمن » :

ـــ هل يسْمح لي الوالد بكلمة ؟

قال الْأَبُ : تَفضَّل

قال « أيْمن » :

ـــ لقد تحدَّث إلِيْنا أَيْضاً أستاذ التربية الإِسلامية في هذا المْوضوع ، ولكنَّه اختصره بِسَبب أَنَّ أَحَد التلامذة من رفاقي ضايقَهُ بِسُؤال فضيَّع عليْنا جميعاً ...

قال الْأُب :

ـــ وماذا سَأَل رفيقُك ؟

قال « أَيْمن » :

ـــ سَأَلَ زميلي : إذا كان الله مَوْجُوداً ياأُسْتاذ فَأَيْن هُو ؟ ولماذا لا نراهُ ؟

وعِنْدئِذٍ تجهَّم وَجْهُ المدرِّس ، وقَطَعَ الحديث .. وضَرَب على الطاولة بُعْنف ، ثُمّ حَمَلَ كُتُبُهُ في حقيبتِهِ وخَرَج من الْفَصْل وهُو يردِّد :

﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطر السماوات والْأَرض ﴾ !!!

فقال « أَبُو أيْمن » :

ــ هذا تَصرُّف غير مقبول من المدرّس ، فقد كان عَلَيْه أَنْ يتقبَّل السُّؤال ويردَّ عَلْيه ...

قالت « عائشة » :

ــ حقّاً - يأبي - لماذا لا نرى الله تعالى .. ؟

فحاول « أَيْمن » أن يتكلم فأشار عليه والده بالسّكوت ، ثم آلتفت إلى « عائشة » وقال :

ــ لعّلك نسيتِ ما حّدثتكم به عن سيِّدنا « موسى » - عليه السلام - !!

فسكتت قليلاً ثم قالت :

ــ تذكرت ... تذكرت ... ، لقد طَلَب إلى الله تعالى أن يراه إذ قال :

﴿ ربِّ أَرِني أَنْظُر إِلَيْك ﴾

ولقد أجابه الله تعالى بالنَّفي ، وعقّب فقال :

﴿ ولكن أَنْظُر إلى الجبل فإن آستَقَرَّ مكانَهُ فَسَوْف تراني ... ﴾

ثم سكتت « عائشة » ... ، فقال الْأب :

ـــ أكْملي يا« عائشة » .. !

فلم تَفْعل ، فقال « أَيْمَنُ » :

ـــ ﴿ فلّما تجلّى ربّه لِلْجَبَل جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقا ﴾ .

قالت « عائشة » :

ـــ فَهِمْتُ الآن ... ليس كُلّ مَوْجودٍ يُرى بالضّرورة ... أو أن يكون محسوساً ملْموسا ...

فقال الأبْ :

ـــ تماماً - ياحبيبتي - ... كالعقْل الذي كرَّم الله تعالى به بني آدم .. ، هل يُرى ويُلْمس ..؟؟ ولكن نتبيّن أثره في الفرق بين إنسانٍ عاقلٍ مُدْرك وآخر مَعْتوهٍ مجنون ، وآثار الله تعالى ظاهرة في الكوْن ، وآياته واضحة لكل ذي عينيّن ... ، وَجّلَّ الله - سُبْحانه - عن التشبيه والتمثيل .

ومن هنا أَيْضاً يا أعزائي نَبْدأ الحديث عن التَّوْحيد ، وأرْجو أن لا تُقاطعاني وتكونا آذاناً صاغية ، فإن كان لِأحدكما آستفْسار فَلْيُؤَخرهُ إلى النّهاية ... ، اتّفقْنا ... ؟!

قال « أَيْمن » و« عائشة » بصوْتٍ واحد :

ـــ اتفقْنا ...

قال الْأَبُ :

ـــ إن قِصَّة التَّوْحيد ذات شِقَّيْن : شِقٌّ تاريخيّ يتصل ويَتَسلْسل عكسياً من نُبُوَّة سيدنا « محمد بن عبدالله » – ﷺ – إلى « آدم » – عليه السّلام – ، فحكايات الأُمَم والشُّعُوب والمجتمعات الإنسانية ، وأَنّظمتها وقوانينها ، وحُكامها ورؤسائها وعلاقة أَفْرادها بعضهم ببعّض ، وتعاطي الإنسان مع الكوْن لأداء دوره على مسْرح الحياة ... ، ومبْعث الرُّسُل وَالْأَنبياء – صلوات الله وسلامُهُ عَلَيْهم – لضبْط الأنحراف ، وهداية الإنسان إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ... ، كُلّ ذلك يُؤّكد هذا النَّهْج ويُحَتّمُهُ ...

وشِقٌّ ثانٍ هُوَ الكوْن الفسيح الكبير والفضاء الرَّحُب الواسع ... اللانهائي ... ، الذي لا نرى نَحْن مِنْه إلا بحدودِ الحواسّ والقُدْرة ... ، والنّظام الذي يَحْكمُهُ ويُسيّره والقانون الذي يضْبطه ... ، والذي لا نَسْتطيع مُضادَّتَهُ ...

وارتفعَتْ يَدُ « عائشة » تُريدُ أن تسْأل ، فقال والدها :

ـــ لقد اتفقنْا على أَنْ نستفْسر في نهاية الحديث ... أَلَيْس كذلك ؟

قالت « عائشة » :

ـــ ولكنه – ياأبي – سؤال مُلِحٌّ وضروريّ ...

قال :

ـــ وماذاك ؟

قالت :

ـــ ماذا تعنى بـ [المضادَّة] ؟

قال :

ـــ مخالفة النّظام والنَامُوس ... ، مَثَلاً : هَلْ نَسْتطيعُ أَنْ نَزْرع في الْبَحْر !!؟ ، لقد هُيِّئَتِ الْأَرْض ياآبْنتي لِأَن تكُون هي المَيْدان العمليّ ... ؛ أَوْ هل نَسْتَطيع أن نبْني بناءً في الهواء ... في الفضاء ... ، غَيْر مُرْتكزٍ على شَيْء !!؟ ، إنّ قانُونَ الجاذبيَّة لا يَسْمح بذلك ...

قال « أَيْمن » :

ـــ هل يَسْمح والدي أَنْ أُضيف شيْئاً قد حَضَرني الآن .. ؟

قال « الأب » :

ـــ وما هوُ ؟

قال « أَيْمن » :

ـــ السُّفُن الفضائية الّتي تُطلقُها الدُّول الكبُرى ، المتقدّمة عِلْميّاً ، وكذلك الْأَقْمار الصِّناعيَّة ... ، كُلّ أولئك ليس مؤهّلاً للحياة أَعْني ، لاستمرار الإِنسان فيها ، وإن بدالنا أَنّها كالْبناءِ في الفضاء ... وهي أَيْضاً لا تَلْبَثُ أن تتلاشى وتَزول ...

* * *

وعاد الأب إلى متابعة الحديث فقال :

ـــ لِنَتَصَوَّر معاً وُجُودنا نَحْن الْأَربعة في هذه الشّقّة ... ، فَنَحْنُ ضِمْن عمارة ، وهي في شارع ، والشارع في حيٍّ من الأَحياء .. ، من مدينةٍ فسيحة كبيرة تضم الملايين من البشر ، ثم نَحْن

جزء من وطنٍ .. ، والوطن في قارّة ... ، والقارَّة تَفْصلها البحار والمحيطات عن غيرها ، وكُلُّ ذلك على سطح الْأَرض .:. الكَوكب الصغير السابح في الفضاء ... بَيْن الملايين من غَيْرِهِ ...

فكم نَحْن صِغار ، وكم هُوَ كبيرٌ الكوْن ؟

* * *

وما كاد الْأَبُ يخْتم كلامهُ ، حتى أرتَفَع صَوْت المؤذِّن لصلاة الفجْر يقول :

ــ الله أكبر الله أكْبر ...

فقال الْأَبُ :

ــ هذا النداء – يا أَعِزّائي – هو مِفْتاح التوحيد .. ، قُوموا إلى الصلاة ... ، ونُتِمَّ الحديث غداً إن شاء الله تعالى .

قُل انظُروا ماذا في السَّمٰواتْ ؟

[﴿ قُل ٱنْظروا ماذا في السَّمٰوات ... ﴾]

وخرج « أبو أَيْمن » إلى الشُّرْفة يَستَرْوِحُ نسمات الفجْر النّديّة ... ، ولحق به باقِي أفراد الْأُسْرِة ...

وبَدأ وَصْل حديث الْأَمس فقال :

ــ قُلْتُ لكُما بالْأَمْس إنّ التّكْبير مِفْتاح التَّوْحيد وهو أحد رموزه اللفظيَّة الأساسيّة ، وربَّنا – سُبْحانه وتعالى – يُلّفت أبصارنا وبصائرنا إلى السّموات بِقَوْله الحكيم :

﴿ **قُلِ آنظروا ماذا في السماوات** .. ﴾ ...

ولَيْس كاللَّيْل مجالٌ للنَّظر والتأمل في السمواتِ ، وبديع صُنْع الله ... ، حُيْثُ تنجلي الكواكب والنجوم وتسطع وتتلألأ ... ، وترصِّع الفضاء الرَّحْب وتزيّنه ﴿ **إِنَّا زيَّنا السّماء الدُّنيا بزينةٍ الكواكب** ﴾[1] ، بَعْضها يَبْدوا مُشِعَاً وبَعْضُها خافتاً ، وذلك تَبَعاً لِمواقعها ... ، قُرْبها أو بُعدها عن كوْكب الْأَرْض التي نعيشُ على سطْحِها ...

---

(١) سورة الصافات ، الآية (٦) .

وأَرْجو أن تُلاحِظا معي قوْل الله تعالى ﴿ **السَّماء الدُّنْيا ..** ﴾ ... أي القريبة ، وهي غير السماوات العُلىٰ ... البعيدة البعيدة ... والّتي تتجاوز في بُعْدها قُدْرة تصوّرنا وتخيُّلنا ... ، وهي غير محدودة ... ولا نهاية لها ...

وهَتَفَتْ « عائشة » تَقُول لا شُعُوريّاً :

ـــ الله أكْبر ... ، سُبْحان الله ...

وأضاف « أبو أيْمن » :

ـــ وقبل أن يَسْألنى أحدكما عن الْفَرْق بيْن الكوكب والنَجْم ، وهو سؤال مُنْتظر ، أقول بأَنَّ الكوكب نجْمٌ كان مُتقداً مُتأجّجاً ... فيما مضى من آلاف وملايين السنين ، ثُمّ آنْطَفَأَ وبَرَدَ ، وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية والفلكيَّة ذلك ، بالنّسْبَة إلى الأَرْض .. ، وأيضاً بالنسبة إلى القمر أَقْرب الكواكب إلى الأَرْض ...

أَمّا لماذا لم تنطفيء الشَّمْس .. ؟ أو تتناقص حرارتها .. ؟ أَوْ يخفت لهبُها .. مع تعاقُب الدهور ..؟

قال « أَيْمَنُ » « مقاطعاً » مجيباً على هذا التساؤل :

ـــ هذا - ولاشَكّ - أَمْر يَقْطع بإرادَةِ الله تعالى وتدبيره وتقديره ...

قال « أبوأَيْمن » :

ـــ بارَك الله في حُسْن آهتدائك يابُني وزادَكَ عِلْماً وإيماناً ... ، وسكت قليلاً ثُمَّ أَرْدف :

ـــ إنّ كلمة [الاهتداء] التي ذكرْتَ أثارَتْ في ذِهْني فكرةً وذكْرى ... ، ذكرى قِصّة سيدنا « إبراهيم » - عليه السلام - ، أبُو الْأَنبياء ، حينَ فكّر وقَدَّر ... ، وسَبَح بخيالِهِ في آفاق اللَّيْل والكوْن ، وظَنَّ وهْماً أنَّ النجم في عُلُوِّه وشُعاعِهِ إلهٰ ... خالق ... ، فلمّا أَفَلَ وغاب انكسرت نَفْس « إبراهيم » عنه ؛ وتراجعت ... ، فلمّا رأى الْقَمَر بازغاً يُرْسِل نوره النقّي على الْأَرض كلها ، قال عَنْه بأَنَّه الله .. ، لأَنَّه [أَكْبر ..] ...

ولكنّ الْقَمَر غاب أَيْضاً وأَفَل ... ، فَأُصيب « إبراهيم » - عليه السلام - بِالإِحْباط ... ، ولفّ اللَّيْل بظلامِهِ الدامس نَفْس « إبراهيم » ...

ومع الصَّباح ... أَشْرَقَتْ الْأَرْض بنُور ربِّها ، وظهَرَتِ الشَّمْس ... ، ومع مرور ساعات النهار كانَتْ تشتد وَهجاً وإشعاعاً ... ، فَظَنَّها « إبراهيم » - عليه السَّلام - بأَنَّها رَبُّهُ ، لأنها - أيْضاً - [أَكْبَر] ... وأعظم وأقوى وأَشَدّ ...

وانتهت رِحْلَتُها اليومية من الصباح إلى المساء ، فَأَخَذَتْ تَصْفَرُّ وتَضْعُف ، ثُمّ غابَتْ وراء الْأُفق ، ودخل اللَّيْل من جديد ...

عندئذٍ قال « إبراهيم » - عليه السلام - :

﴿ فلمّا جَنَّ عليه اللَّيل رأى كوْكباً قال هذا ربي فلما أَفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أَفَلَ قال لئن لم يهدِني ربي لأكونَّن من القوْم الضالّين * فلمّا رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أَفَلَتْ قال ياقوْم إني برىءٌ

مما تشركون * إني وجَهْتُ وَجْهِي لِلّذي فَطَرَ السماواتِ والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[1]

* * *

وتلاحظانِ – ياعزيزيَّ – بِأَنَّ سّيدنا « إبراهيم » – عليه السَّلام – وهو يَبْحث عن الحقيقة ، ويسعى إلى الله تعالى ، قد أَوْكَلَ أَمْر الآهتداء إلى الحقّ – سُبْحانه – ، بِقَوْله :

﴿ لَئِنْ لم يَهْدِيني ربي ... ﴾

ولقد آرتاحَتْ نَفْسُهُ ، وآطمئَنَّ فُؤادُهُ حين بَلَغَ هَدفَهُ ، فقال :

* * *

وَأُحِبُّ أن تُلاحِظا أَيْضاً بِأَنَّ ضوء النهار مع سُطوع الشمس لم يكُن كافياً لإِدْراك سبيل الإِيمان ... ، ذلك أَنّ هذا السَّبيل يُضيء بشُعاعٍ باهرٍ يُلْقيه الله تعالى في القلْب ... فيضيء جوانب الذات الإِنسانية حيث تتفوّق على كُلّ أنوار الدُّنيا ...

وصَدَق رسُولنا الأكرم ﷺ الذي يقول بِأَنّ المؤمن يرى بِنُور الله – جَلَّ جلالُه – !!!

قالت «أم أَيْمَن» ، وقد أَحَسَّت بلَسْعَةِ بَرْد :

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات (٧٦–٧٩) .

ــ أرى أن تكْتَفُوا اَللَّيلة بهذا القدّر من الحديث ... خُصُوصاً وأَنَّ أذان الفَجْر قد أُوشك ، وإنني أَشْعُرُ أَيْضاً بقشعريرة بَرْد ...

فقال « أبو أيمن » :

ــ الحقُ مَعَكِ يا« أُمّ أَيْمَن » لقد سرقنا الْوَقْت ... ، هيّا توضّؤوا يا أولاد استعْداداً لِلصّلاة ...

وكان أوّل من قام من المجلس ...

وقالَتْ « عائِشَةُ » لِـ « أَيْمن » :

ــ لقد كان حديثاً شَيِّقاً مُمْتِعاً ... ليْتَهُ طال ...

فقال « أَيْمن » :

ــ غداً بإذْن الله يكونُ أَكْثَر مُتْعَةً ...

وآنْطلق صَوْتُ المؤَذِّن يقول :

ــ الله أكبر الله أكبر ...

* * *

[﴿ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون ﴾]

قالت « عائِشَةُ » :

ــ لقد سَمِعْتُ مُدرِّسة الجغرافيا تَقُول بِأَن الكواكب قسميْن : ثابتة وسيّارة ، وأَنّ كوْكب الأرْض ، والشمس والقمر ... من المجموعة الشمسيَّة السَّيارة ، ولم أُسْتوعب الموضوع بكامِلِهِ ، فقد شُغِلْتُ عنه بِسَبْحَةٍ فكريَّة ... في الفضاء الرَّحْب ... ، وضاعت مِنّي الْفُرْصة ، فَهل تتكرَّم يا أبي بالشَّرْح والتعليق ؟!!

قال « أبو أَيْمن » :

ــ مازِلْنا يا« عائشة » على مائدة السُّحُور ... فهلاّ انتظرتْ حتى نفرغ ونَجْلس بانتظار صلاة الفجْر ... ، وأخشى أن يَشْغلك الطعام عن الاستيعاب – أَيْضاً – ، أو تشغليني عن وجْبتي !!!

قال « أَيْمن » :

ــ فَلْنُسْرِع إذاً...، ويَبْدو أَنَّه حديث طويل ... وأرى أنه أَلَذّ وأَشْهى من الطعام ... ، وأعظم غذاءً ...

وضَحِكَ الجميع !!

* * *

وجَلَس أفراد العائلة مجلسهم بالْأَمس ... وأصْغُوا إلى الوالد يقول :

— بسم الله الرحم الرحيم :

﴿ وآيةٌ لهم اللَّيْل نسْلَخُ منه النّهار فإذا هُم مُظْلِمُون * والشمس تجري لِمُسْتَقّرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم * والْقَمَرَ قَدَّرْناهُ منازِل حتى عاد كالعُرْجونِ القديم * لا الشمس ينْبغي لها أن تُدْرك القمر ولا الليل سابق النْهار – وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾[1]

وقال الجميع :

— صَدَق الله العظيم ...

وأضاف « أيْمن » :

— أعْتقد أن الآيات البينات التي سمعناها من سورة [يسٓ] ...

قال « أبوأيمن » :

— تماماً يابُنَيّ ... ، وهي تتحدّث بصراحةٍ ووضوحٍ عن مداراتِ مجموعتنا الشمسّية وأَفْلاكها ، وتُعْطي الإنسان الحقيقة وتؤهِّل قدراتِهِ على التّعاطي مع أَسْباب الحياة ونظامها ...

---

(١) سورة يس ، الآيات (٣٧–٤٠) .

فالشّمْس تمدّ الكائِن الحيَّ بالحرارةِ ...

وهي في شروقها وغروبها تسجّل يَوْماً ...

تعطيه النُّور في النهار من أَجْل السِّعْي والحركة ... ، ثم تأْفل لِتّخلُد إلى الراحة والنَّوْم ...

* * *

قالت «أم أَيْمن » :

ــ سُبْحان الله الّذي ﴿ جَعَلَ اللَّيْل لباسا والنهار معاشاً ﴾ ...

وتابَعَ « أبو أَيْمن » :

ــ والقمر ... مُنْذُ إهلالِهِ حتى يكْتمل بَدْراً ساطِعاً ... ثم تناقُصِهِ حتى يَعُود كما بَدَأ ... ﴿ **كالعُرْجُونِ القديم** ﴾ – أي كالقضيب الدَّقيق الرفيع – إنّما يُسَجِّل دَوَرة شهْرٍ ، بالأضافةِ إلى حركةٍ مؤثّرةٍ في مياه البحار والمحيطات ، راقبها العلماء وسجّلوها ، ثُمّ سمُوها : المدَّ والجزْر ...

* * *

قالت أُمٌّ « أَيْمن » :

ــ أُحِبُّ أن أُضيف شيْئاً إلى ماقالَهُ الوالد ، ولا أُظُنُّه قد نَسِيَهُ ، وَهُوَ أن الشَّمْس في دَوْرتها الفلكيَّه تسجِّل نظام الفصول الأَرْبعة ،

التي تُعْتبر بحِقٍّ إحْدى العوامِل الرئيسيَّة لآستمراريَّة الكائنات الحيَّة ... وخصوصاً النّبات ...

قال « أبو أيمن » :

ــ شُكْراً لَكِ على هذه اللَّفْتة ...

ثم أضاف :

ــ وإذْ يُتمُّ القَمرُ اثنتا عَشْرَةَ دوْرةً ، تكونُ السَّنَةُ ... ، وأَرْجُو أَنْ تُدْركُوا أَنَّ ذلك هُو أَصَل كُلّ العمليّات الحسابيّة ...

يقول الله تعالى :

﴿ إنّ عِدَّة الْشُّهوُر عند الله آثْنا عشر شَهْراً فى كتاب الله ﴾[1]

ويقول عَزَّ من قائل :

﴿ ولتِعْلَمُوا عَدَد السِّنين والحساب ﴾[2]

* * *

قال « أَيْمَنُ » :

ــ إنّ في مَطْلَع الآية التي تَلَوْتها علَيْنا من سورة « يسْ » كلمة أُريدُ من حَضْرتك توضيح معناها .. وهى قوله تعالى :

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٣٦) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (١٢) .

﴿ نَسْلَخُ .. ﴾ ذلك أَنّ السَّلْخ كما أَفْهمَهُ هو نَزْع جلْد الحيوان بعد ذَبْحه ، فما مناسبتُها هنا بَيْن اللّيل والنهار ؟

تَبسَّم « أبو أَيْمن » وقال :

ــ إنّ الحركة يابُنيَّ هي دليلُ الحياة ... ولا تكون إلاّ في الضَّوْءِ ، أي في النّهار ... ، ولقد عبَّر الله تعالى عن النّوْم ليْلاً بأنّه وفاة .. ؛ أو ميتة صُغرى كما أشار إلى ذلك رسُولُنا «ﷺ» ... ،

وإذا ما آنْطَلَق الأحياءُ في دُرُوب الحياة ساعين دائبين أَضحُوا بعد ساعاتٍ مكدودين مُتْعَبين ، فكان لابُدَّ من رقْدَة راحةٍ ... ، فتُطوى صَفْحةُ النّهارِ .. ، وتُنْزَعُ الْجلدَةُ وتُسْلَخُ ؛ قسْراً وقهْراً ... لما في شَمْس النّهار مِنْ شِدَّةٍ وقسْوة ... خصوصاً إذا ما آستّمرت ودامتْ من غَيْر ليْل ...

آسْمَع قوْل الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرأَيْتُم إن جَعَلَ الله عليْكم اللَّيْل سَرْمداً إلى يَوْم القيامة منْ إلهٰ غَيْرُ الله يأْتيكُم بضياءٍ ... أفَلا تسْمعون * قُلْ أَرأيْتُم إن جَعَلَ الله عليْكم النهار سَرْمداً إلى يَوْم القيامة مَنْ إلهٌ غَيْر الله يَأْتيكُم بلَيْلٍ

تَسْكُنون فيه أَفلا تُبْصِرون * وَمِنْ رحْمَتِهِ جَعَلَ لكم اللَّيْل والنهار لِتَسْكُنُوا فيه وَلِتَبْتغُوا من فضلِهِ ولعلّكم تشكرون ﴾[1]

قالت « عائشة » :

ـــ سُبْحان الله العظيم !!!! ، إنَّه – تعالى – يُحرِّك في الإنسان حاسَّتَيْ السَّمْعِ والْبَصَر بِقَوْله : ﴿ أفلا تَسْمَعُون .. ﴾ ﴿ أَفَلا تُبْصِرون .. ﴾ فُيثير تفكيرَهُ ، ويُهزُّ وجْدانه وحِسَّهُ ، وليْدْرك من بَعْدُ عظمة رحْمةِ الله بِعبادِهِ ، والتي تَسْتَوجِبُ شُكَرهُ ...

قالتْ « أُمُّ أيْمن » :

ـــ أَحْسَنْتِ الْفَهْم يا« عائشة » ... ، ولكنْ كيْفَ يكُونُ الشُكْر ؟

وهنا تنافَسَ « أَيْمن » و« عائشة » كُلٌّ منهما يريدُ أن يَظْفر بالجواب ، لكنَّ الْأُمّ قالت :

ـــ الجوابُ مطلوبٌ من « عائشة » ...

فسُرَّت الآبْنَةُ ، وآنْتَشَتْ ...، وآنْتَفَخَتْ كالدّيك ... ، ثم قالتْ :

ـــ إنما يكون الشُّكر بالعبادَةِ والطاعة لله وَحْدَه ...

وأَدْركت العائلةَ صلاةُ الفجْر ...

---

(١) سورة القصص – الآيات (٧١–٧٣) .

[﴿ رَبُّ المشْرقيْنَ ورَبُّ المغربَيْن ... ﴾]

وقَبْل غروب شَمْس اليوْم التالي بدقائق مَعْدودة جَلَس « أبوأَيّمن » على أريكةٍ في الشُّرْفة يَسْتَمِعُ إلى تلاوةٍ قُرآنيَّة مباركة ،

وأُمُّ « أَيْمن » تَغْدو وتروح بَيْن المطْبخ ومائِدَة الإفطار ...

و« أَيْمنُ » و« عائشة » حَوْل أَبيهما يُنْصِتانِ إلى التلاوة ... ، حتى إذا ماقال القارئُ (صَدَق الله العظيم) وقبْل أن ينطلق مِدْفَعُ الافطار ويؤذن المؤذّن للمغْرِب ، قالت « عائشة » لأبيها :

ـــ ياأَبَتِ .. لقد تعوّدْنا أَنْ تَقْرصِنا الشّمْس عند غروبها في فَصْل الشّتاء ، على شُرْفتنا هذه ، قَرْصاً خفيفاً ... ، أَمّا الآن فهي تمْلَؤنا شُعاعاً فما السِّرُّ في هذا التَّحوُّل ؟

وقَبْل أن يُجيب « أبوأَيْمن » على سؤال « عائشة » انطلق مِدْفع الإفْطار ... ، فالْتَفَتَ إليْها وقال :

ـــ أما الآن فلا جواب ... على سؤالك ، ولكنَّهُ سيكُونُ مَوْضوع بَحْثنا الَّليْلة إن شاء الله تعالى .

* * *

وَفَرغُوا من طعام السُّحور ...

و« عائشة » تنتظر بفارغ الصَّبْر الإجابة على سُؤالها ... ،

وآسْتَفْتَح « أَبُو أَيْمن » الحديث بِبِسْم الله الرحمن الرحيم ، وتلا قوْل الله تعالى :﴿ **رب المشرقين ورب المغربين * فبأى ءَالآءِ ربكما تكذبان** ﴾[1]

ثُمَّ قال :

ـــ لقد لاحظْتِ يا« عائشة » مَغْرِبَ الشمس في ناحيتيْن ، بَيْن فَصْلَيْ الصَّيْف والشِّتاء ، ولكنك لم تلاحظي شُروقها أيْضاً مِنْ ناحيتيْن ... ، وهي كذلك تَتَدرَّج طوال نِصْف السنة من ناحيةٍ إلى أُخْرى ، وبهذا تَتَعدَّدُ المشارِقُ والمغارب ، وصَدَق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾[2]

وأَيْضاً ... أُريدُ أَنْ أَسْأَلك ... نَحْن الآنَ على مَوْعِدٍ مع شروق الشَّمْس بعد ساعتيْن تقريباً ... فما هُوَ الوقْتُ بالنِّسْبةِ إلى النّصْف الآخر من كوْكب الْأَرْض ... أَلَيْس قُبَيْل الْغُروب !؟

هكذا – ياعزيزتي – يَتوزَّع النّظام ... بِدقّةٍ وإحكام على الأرض والْأَحياء ، وتنتشر رَحْمةُ الله بِخَلْقِهِ ، رحمتُه التي وَسِعَتْ كُلّ شَيْء ...

وقال « أَيْمَن » :

---

(١) سورة الرحمن آية ١٧ .

(٢) سورة المعارج آية ٤٠ .

— تذكُرتُ – ياأبي – حوار سيّدنا « إبراهيم » عليه السلام – مع الملك الطّاغية الّذي أسْرَفَ وأنْكر .. ، وآدّعى الألُوهيَّة ... ، وظَنَّ أنه يُحيي ويُميت ...!! فَلَقَدْ تحدّاه سيدنا « إبراهيم » بِأَنَّ الله تعالىٰ ، الواحد الأحد ... الفرد الصَّمد ... يأْتي بالشَّمْس من المشْرِق فَهَلْ يستطيعُ هُوَ أَنْ يأْتي بها من المغْرب ... ويَعْكس النِّظام ... فأسْقِط في يَدِهِ ... وبُهتَ وتحيِّر ...

قال « أَبُو أَيْمن » :

— رعاك الله يابُنيّ ... ؛ ولكن الا تَحْفَظُ الآيات!؟ إسمعاها مِنّي ، وأَرْجُو أَنْ تحفظاها جيّداً ..

* * *

[﴿ لا الشّمسُ يَنْبغي لها أَنْ تُدْرك الْقمر .. ﴾]

وشَقَّ سُكُونَ اللّيْل دَوِيٌّ شديدٌ في الشّارع ...

إنّهُ صَوْتُ تصادُم بَيْن سيارتيْن ...

فقام الْأَبُ يُطلُّ من الشُّرْفَةِ ، وكذلك « أَيْمن » و« عائشة » وأُمّهما ... ، حتى إذا آنفضَّ الآشْتباك ، ولم تحدث خسائر في الأرواح ... ، عاد « أَبُو أَيْمن » إلى مجلسه ، وكذلك أَفْرادُ الأسرة ... .

وقال « أبُو أَيْمن » :

ــ سيارتَيْن ... وراء مِقْود كلَ منهما إنْسان يَعْقل ويَسْمَعُ ويُبْصر .. ، ولهُما كشّافانِ قويّان يمتدّ نورهما إلى مسافةٍ بعيدة ، ولهُما أَيْضاً (فرامل) إذا ماضُغِط عَليْه خَفَّت السُّرعة وقلَّ الْخَطَر ... أوِ آنْعَدَم ... ، وأَيضاً إشارات مرور ... ورغم كل ذلك وَقَع التصادُم ...

أَلا تُلاحِظان ملايين ملايين النجوم في السَّماء ... ، لا يقودُها في مسيرتها إنْسان ... تَدورُ وتدُور منذ ملايين السّنين ... في فَلَكٍ مُحدَّد وفي نطاق لا تتعداه .. ، وكذلك الشمس والقمر الدائبيْن ...

لم يحْصل تصادُم بَيْن نجم وآخر ، أَوْ كوْكب وآخر ...

فقالَتْ « أُمّ أَيْمن » :

ــ ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ... ﴾ و ﴿ **الشَمْس والقمر بحُسْبان** ﴾ ...

وأضاف « أَبُو أَيْمن » :

ــ إنها إرادةٌ واحدة ... ونظام واحد ، وصَدَق الله العظيم إذْ يقول :

﴿ **لوْ كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتا** ﴾

وإذا بلسانِ « عائِشة » يُردِّد تِلْقائيّاً :

ــ لا إلهٰ إلاّ الله ... لا إلهٰ إلاّ الله ...

وإذا بـ « أَيْمن » يقول :

ـــ سُبْحان الله ... سُبْحان الله ...

فقال « أبُو أيْمن » :

ـــ اسْمعا ... لقد أُثِرَ عن رسُولنا الأكرم «ﷺ» قوْله في التَّسْبيح :

[سُبْحان الله عَدَد خَلْقِهِ ، سُبْحان الله رضى نَفْسِهِ ، سُبْحان الله زِنَةَ عَرْشه ، سُبْحان الله مِداد كلماتِهِ]

فاْجْعلا ذلك يُرَطِّب لسانيْكما دائماً ...

وح« حيّ على الفلاح » ... !

* * *

[﴿ ربَّنا ماخَلَقْتَ هذا باطلاً ... سُبْحانَكَ ﴾]

وقال « أَبو أَيْمن » لِوَلَده وهو يُهمُّ بالخروج إلى المدْرسة :

ـــ مالِعيْنَيْك مُحْمرَّتَيْن !؟؟ هَلْ تشْكو أَلَماً يابُنَيّ ؟

فأَجاب « أَيْمن » :

ـــ أبداً ... والحمْدُ لله ... ، ولكنّي لم أَنَمْ بعد أَنْ صلَّيْنا الْفَجْر ... ، ولقد حاولْتُ كثيراً أَنْ أُطْبق جَفنيَّ وأستسلم للرُّقاد .. ولكن من غَيْر جَدْوى ...

قال « بُو أَيْمن » وهوِ يَضَعُ يَدَهُ برفْق على كتِف وَلَدِهِ :

ـــ عسى ألا يكون أَرَقُكَ هذا ناتجاً عن خَوْفٍ أو قَلَق ..! هل أَزْعَجك شيْءٌ معيَّن ؟؟

قال « أَيْمن » :

ـــ كَلّا ... ياأَبي ... ؛ بَلْ أَسْتغراق في التَّفكير وتَأَمّل في السَّماء ... ، خصوصاً وأَنَّ النّافِذَة إلى جانبِ سريري كانَتْ مُشْرعة ... والنُّجوم تُرَصِّعُ الْفَضاء ، كَأَنَّها كلماتٌ بيضاء على صفحةٍ سَوْداء ، تتلألأ بالنُّور وتطْغى على الْتُجُور ..

فَتَبَسَّمَ « أَبُو أَيْمن » وقال في مُداعبةٍ ومُزَاح :

ــ لقد أَصْبَحْتَ ياولدي مُفَكّراً وأديباً وأَنْتَ في هذه السِّنّ ، ماشاء الله !!!

والآن توكّل على الله وأَسْرِع بالخروج إلى المدْرسة قبل فوات الوقْت ، ولسوْفَ يكُونُ مَوْضوعُ حديثنا اللَّيْلة ما كان بيّنك وبَيْن السّماء ونجومها وكواكبها من مُناجاةٍ وَحِوار ...

وبعد تناول وجبة السحور وقد فرغ « أبوأَيْمن » من تناوُل الشّاي ، ووضَعَ الْقَدَح جانباً ، قال :

ــ لقد كُنْتَ يابُنَيّ اللَّيْلة الفائتة من الذين يَنْطبقُ عليهم قوْل الله تعالى :

﴿إنّ في خَلْق السماوات والأرض واخْتلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألْباب * الذين يذكرون الله قياماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِم ويتفكّرون في خَلْق السماوات والأرض ربّنا ما خَلَقْت هذا باطلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عذابَ النار﴾

وأصحاب الألباب هم أَصْحاب العقول ... العقول السويَّة السّليمة ... التي لايَشْتطُّ بها الهوى ، ولا تهيم في المتاهات ... ، لا تزيغُ ولا تَضِلّ ... ، الّتي تُدْرك فتقول :

﴿ربّنا ما خلقْت هذا باطلاً . سُبْحانك﴾

فالله تعالى خَلَق السماوات والأرض ومافيهما وما بَيْنَهُما بِالْحَقّ ، وكُلُّ خَلْقٍ من خَلْقِهِ سُبْحانَهُ له قانُونُه ولهُ نظامُهُ ، يَمْضي إلى غايتِهِ وِفْق النّامُوس الذي حَدَّدَ لَهُ والطريق الذي رُسِمَ لهُ ، من غَيْر تعَدٍّ أَوْ آعْتداء ، أَوْ طغْيان أو آمتناع ...

قال « عائشة » :

ــ فما بالُ الإنسان – يا أبي – وَحْدَهُ من دُونِ الخلْق جميعاً يَعْصي أَمْر الله تعالى ويخالفه ، مع أَنَّه العاقِل الوحيد ...!!

فقال « أبوأَيْمن » :

ــ معك كُلّ الحق يا« عائشة » في هذا التّساؤل ... ولكني أُذَكّرك بِقَوْل الله تعالى :

﴿ ونَفْسٍ وما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فجورها وتَقْواها* قد أَفْلَح مَنْ زكّاها * وقد خابَ من دسّاها ﴾

« آدم » – عليه السّلام – ، ونَحْن ذريّته ، قد رُكِّبَتْ فيهِ نَزْعَةُ الْخَيْر ونَزْعَةُ الشّر ، وجُعل فيه العقْل ليميز الخبيث من الطيّب ويَحْجزَهُ عن السُّوء وعن طواعية الشّهواتِ والْأَهْواء التي مَصْدرها وَسْوَسَةُ الشيّطان (إبليس) ...

فَمَنْ نَمّى بذرة الْخَيْر في نفْسِهِ وآتّقى رَبَّه أَفْلَحَ ونجح ، ومَنْ أطاع هواهُ وآتّبَعَ شيْطانَهُ خابَ وَخسِرَ ، في الدُّنْيا والآخرة ... !!

وكُلُّ ذلك آمْتحان وآبتلاء ...

﴿ لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عملا .. ﴾

* * *

ونَعُودُ إلى « أيْمن » ...

قال الوالدُ ذلك وهُوَ يلْتَفِتُ إلى آبْنه ، ثم أضاف :

ــ قُلْ لي يا« أَيْمن » : ما الْحوار الذي أَجْرِيْتَهُ مع السماء وأفلاكها وكواكبها ونجومها ، أوْ بماذا فكّرت حتى أُرِقْتَ ؟؟

وسكت « أيْمن » قليلاً ، كأنَّه يَسْتَرْجع الذكريات ، ثم قال :

ــ إنها خواطر كثيرة كانَتْ تتابَعُ على ذِهْني ، ولا أَسْتطيعُ حَصْرها الآن ، ولكنّ واحِدَةً هِيَ التي شَغَلَتْني أكثر من غيرها ، لِأَنها آرْتَبطت بدَرْس تلقَّيْتُه في المدْرسة ، وقد تحدّث فيه المدرِّس عن سُرْعة الضّوء ... وموضوعُ الدَّرْس كان عن الغيوم وتكوُّنها وهطول الأمطار والبَرْق والرَّعْد ...

ولقد هالتْني العمليَّة الحسابيَّةُ التي أَجْراها المدّرس على السَّبُّورة عن سُرْعة الضّوْء والفرق بينها وبَيْن سُرْعة الصَّوْء ... وعمّا يُسمّى بالسِّنين الضّوْئِية ...

لذا كُنْتُ أَنظُر إلى النجوم في السَّماء وأبْعادها ... وأُحاول عبثاً حِسْبَتَها !!!

قالت « أُمُّ أَيْمن » :

ــ هُنا ... أُريدُ أن ألفت النّظر إلى أَنّ كُلّ الانجازات العلميَّة

والاكتشافات التي بلغت أَوْجها في عصرنا هذا ماتزالُ طِفلاً صغيراً يحْبوا أمام أَسْرار الكوْن العظيم وآياتِ الله تعالى فيه ..

وآلتفتَتْ إلى وَلدَيْها وقالت :

ــ هلاّ تذكَّرْتُما قوْل الله تعالى في كتابِهِ الحكيم :

﴿ فلا أُقْسِمُ بمواقِعِ النُّجُوم * وإنَّهُ لَقَسَمٌ لوْ تَعْلَمُون عظيم ﴾[1]

ونَظَرتْ إلى « أَبي أَيْمن » وقالت :

ــ هَلْ تَسْمح أَنْ أُتابع الحديث ... ؟

فقال :

ــ لَكِ ماتشائين ياسيّدتى

قالت :

ــ إن الله تعالى لم يُقْسم بالنُّجوم في هذه الآية الكريمة ، ولكنَّه أَقْسَمَ بمواقعها ، ثُمَّ عقّب على ذلك ببيانِ عَظَمةِ هذا الْقَسَم ... فما الغرضُ من ذلك ؟

وتمَلْملتْ « عائشة » في مجلسها ، وتحفَّزَتْ ... وأَشْرأَبَّ عَنُقُها ... وآتّسعتْ عيناها ، وقالت

(١) سورة الواقعة ، الآية (٧٥) .

ــ فَهِمْتُ ... فَهِمت ... سُبْحانَ الله ... ، إنَّ مَوْقع النَّجْم ، أي نَجْم ، الذي يَبْعث مِنْه ضَوْؤُهُ هُوَ غَيْر المَوْقِعِ الذي نراه فيه !!!

قالتْ « أُمّ أَيْمن » :

ــ إنَّهُ الْقرآن ياأَبْنائِي ، المُعْجِزَةُ الخالدة ... ، بأَسْرارِهِ ومكْنوناتِهِ ...

* * *

وصدَحَ صَوْتِ المؤَذّن يقول :

ــ الله أكبر الله أكبَر ...

وردَّد الجميع :

الله أكبر الله أكبر ...

لا إلٰه إلاّ الله ...

* * *

وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين

[﴿ وفي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقنين ﴾[1]]

كانت السَّيارة تنْهَبُ الْأَرْض ... وتَطْوي المسافات ... ، إذا ماخَلَتْ أمامها الطريق ... ، أو تَتمهَّل وتسير بِبُطْءٍ حين تكْتَظّ بالسّيارات أَوْ بالمارّة من الفلاّحين يجتازونها ببهائمهم ومواشيهم عَرْضاً ...

« أبو أَيْمن » وراء المقْوَد ، و« أُمُّ أَيْمن » إلى جانبه في المقعد الأمامي ، و« أَيْمَنُ » و« عائشة » في المقْعد الخلفيّ » ...

قليلاً مايتكلَّمان ، وكثيراً مايَنْظرانِ إلى الحقول والزَّرْع والْأَشجار ... والناس ، في مُتْعَةٍ وآنْشراح ... ،

وكان كلامهما القليل لايخرج عن دائرة التَّعْليقاتِ العفْويّة ، وسعادتهما بهذه الرِّحْلة الصَّيفيَّة إلى شاطىء الْبَحْر ... ، وتمنّياتهما بقضاء إجازةٍ سعيدة .

* * *

---

(١) سورة الذاريات ، الآية (٢٠) .

وفي مُنْتصف الطريق ، ترجَّلُوا من السَّيَّارة ، ودَخلُوا مَقْهىً لتناوُل طعام الإفْطار ، وأخذ قِسْط مِنَ الراحة ...

قالت « عائشة » :

ــ لقد كانَتْ رِحْلَتُنا اليوْم أمْتع ، إذْ عوَّدْتنا ياأبي أن تأْخذنا إلى « الإسكندريّة » عَبْر الطريق الصحراويّ ... ، أمّا اليوْم فقد مَتَّعْنا أبْصارنا ونُفُوسنا بالْأرْض الْخَضْراء ... بالزّرْع المْختلف ، وبالمياهِ المتدفّقة في التّرع ... ، وبالأشجار الباسقة ... منها المثْمر ومنها الظّليل ، وبالْأطيار وبالناس يَغْدون إلى أعمالهم وأرْزاقهم ...

وَأضافَ « أيْمن » :

ــ إنَّها الحركةُ الدائبة الدالَّة على الحياة ... ، حتى في الْأرْضِ الجامدة ...

* * *

وتَرَكَ « أبوأيْمَنُ » لُقْمته في يَدِه ونظر إلى وَلَدَيْه وقال :

ــ لَعلَّكُما تُريدانِ أَنْ تَنْتَقِلا من آيات الله تعالى في السّماء إلى آياتِهِ في الْأرض !!! حَسَناً ... لقد آخْترْتُما مادَّة حديثنا في رحلتنا هذه ... ، رُغْم أنَّه مايزال أمامنا الكثير الكثير من الكلام حوْل آياتهِ سُبْحانه وتعالى في السماوات ...

وصَدَق الشاعِرُ في قوْله :

وفي كُلّ شيْءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أنَّهُ الواحِــدُ

ثم أكمل تناوُل طعامِهِ .. ، فلمّا انتهى طَلَبَ فنجاناً من الْقَهْوة ، وراح يرشفه ويقول :

ــ قال الله تعالى في مُحَكم بيانِهِ :

﴿ وفي الْأَرْض آياتٌ للموقنين ... ﴾[1]

ويقول سُبْحانَهُ :

﴿ وهُوَ الذي في السّماء إِلٰهٌ وفي الْأَرْض إِلٰه .. ﴾[2]

فإذا كُنَّا قد خُضنْنا فيما سَبَق في الآسْتدْلال على وجودِهِ ووحْدانيتهِ سُبْحانَهُ وتعالى من خلالِ آياتِهِ السماوية ، فإن في الْأَرْض أيْضاً آيات للموقنين ... ، وأُلوهيَّته – تعالى – كما هي في السّماء كذلك في الْأَرْض ...

قالت « عائشة » :

ــ لقد آدَركْتُ الآن يا أبي التّفاوت بَيْن الصَّحْراء وبَيْن الأرض الزراعيّة ... ،

وَرَدَّ « أبوأيْمن » :

ــ وليس هذا فقط ياعزيزتي ، بل هُناك الْأَرْض الجبلّية ، والْوِدْيان السحيقة ، والصَّخْرية وغير ذلك كثير ... ، والله تعالى

---

(١) سورة الذاريات ، الآية (٢٠) .

(٢) سورة الزّخرف ، الآية (٨٤) .

يُوَجِّه أبصارنا وبصائرنا كَبَشَرٍ إلى السَّيْر فيها ومعاينتها على الطبيعة ، لإدْراك بديع صُنْع الله تعالى فيها ...

يقول سُبْحانُهُ :

﴿ قُلْ سيروا في الْأَرْض فَٱنظروا ... ﴾[٣]

ويقولُ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿ أَوَلَمْ يسيروا في الْأَرْض فينظروا ... ﴾[٤]

* * *

قال « أَيْمن » :

ـــ أَعْتقد يَاأبي أن الْمَقْصود من ذلك لَيْس مُتَعَةُ الْحِسّ البـدنيّ أو النَّفْسي فَقَط ، بل التدبُّر والتَأمُّل والتَفكّر ... ، وبلوغ أعلى درجات الإيمان واليقين ... ، فأجاب الوالد بإعْجاب :

ـــ حفظك الله ياولدي ، وأَتَمَّ نِعْمته عليك ، وأَنْبَتَك نباتاً حَسَنا ... ، فِعْلاً هذا هُوَ الهدف الأساسيّ ... ، ولا مانِعَ أَبَداً من أَنْ يمتِّع الإنسان بَدَنَهُ ونَفْسه بِطَيِّباتِ الْأَرْض ، فالله تعالى يَقُول :

﴿ والْأَرْض وَضَعها لِلْأَنام ... ﴾[٥]

* * *

---

(٣) سورة الروم ، الآية (٤٢) .
(٤) سورة الروم ، الآية (٩) .
(٥) سورة الرحْمن ، الآيَة (١٠) .

ثم آلْتفت إلى « عائشة » ووجَّه إليها كلامه فقال :

ــ يا « عائشة » – ياآبنتي – لَيْس التبائن والتّغايُر مَتوقّفاً على أَرْض صحراويّةٍ جَدْباء قاحلة ، وأخرى زراعيّةٍ مِعْطاء ... ، بل حتى الأرض الزراعيّة نَفْسها فيها التغايُر والتبايُن ... ، أَوْ لَمْ تُلاحظي اختلاف الزّرْع بَيْن أَرْضٍ وأُخْرى لوْناً وشَكْلاً ، حتى نَفْس الفصيلة النباتيّة !!!

قالَتْ :

ــ بلىٰ ... لقد رَأَيْتُ عيدان الذُّرَةُ في أَرْضٍ قصيرةً قميئة ، ورأيتُها في أُخْرى طويلةً مُخْضَرَّةً كثيرة « الأَكْواز » ...

فقالتْ « أُمُّ أَيْمن » :

ــ هذا يا« عائشة مِصْداق قوْل الله تعالى :

﴿ وفي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاورات وجَنْاتٍ من أَعْنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنْوان وغير صِنْوان يُسْقى بماء واحد ونُفَضِّل بَعْضها على بعْضٍ في الأُكُل ... ﴾

وأَكْمَلَ « أبُو أَيْمن » الآية الكريمة فقال :

﴿ ... إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقلون ﴾

وقال « أَيْمن » :

ــ صَدَق الله العظيم ... ؛ حقّاً ياأبي ... إنَّ « تكعيبة » الْعِنَبِ في حديقة الدار عندنا ، المجاورة للسُّور ، يَخْتَلِفُ طَعْمها عن

« التكعيبة » الأُخرى المظلّلة لِ « الفَسْقية » ... ، فالأُولى أَحْلى وأَشْهى ... ، وكلاهُما متجاورتَيْن ... وتُسّقيانِ بماءٍ واحد !!! ،

قال « أَبُو أَيْمن » :

ـــ على فكْرة ... إنَّ كَلَمةُ « الماء » الذي هُوَ أُحد العناصر الأساسيَّة لِنُمُوِّ الزّرع ، كلمةٌ لها عُمْقُها في الدَّلالة على الحياةِ والأَحْياء عامَّةً ، فالله تعالى يَقُول :

﴿ وجَعَلْنا من الماء كُلَّ شيْءٍ حيّ ﴾[1]

قالت « عائشة » :

ـــ لقد تذكُرتُ أَمْراً يَتعلّقُ بهذا المْوضوع ... اللّه ... ماأَعْظَم قُدْرَته وما أَجَلَّ شَأْنه ...،

قالَتْ « أُمُّ أَيْمن » :

ـــ وماذا تذكّرت ياآبْنتي ؟

قالَتْ « عائشة » :

ـــ لقد تذكَّرْتُ مُرورنا بالطريق الصَّحْراوي ذات يَوْمٍ ، ورأَيْت يَوْمذاك آلاتٍ وأَجهزة و« مواسير » مُركّبة على عجلات تسيرُ فَوْق أَرْض شاسِعَةٍ ممتدَّة ... تَرُشُ الماء على الأَرْض ... على الرَّمْل وقد ظَهَرتْ على السَّطْح نباتات مخضرَّة ... قليلة الارتفاع ، ثم مررْنا مرَّة أُخرى بعد مُدَّةٍ فإذا النَّبْت قد آسْتطال ونَما ...

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية (٣٠) .

قال « أيْمن » : هذا مايسمُّونه بـ « آسْتصلاح الأَراضي » ...

قالت « عائشة » :

ــ أعْرِف ذلك ... ، ولكنّني أُركّز على عُنْصر الماءِ الذي جَعَلَ منه الله تعالى كُلَّ شيْءٍ حيّ ... ، فبدونِهِ لا أَثَر للحياةِ ...

ولقد درسْنا الجغرافية السُّكّانية لِوطننا « مِصْر » ، فُوجَدْنا أن الكثافة البشرَّية إنما تُوجَدُ حَوْل الأرض الزراعيةَ الَّتي تسيلُ فيها مياهُ « النّيل » العظيم ... ومِمّا سِمْعناهُ من المدرّس أنَّ أَحَدَ الحكماء الْأَقدمين قال عن ذلك قوْلة مشهورة : –[مِصْر هِبَةُ « النّيل »...]–

* * *

فآعْتَرَض « أبُو أَيْمن » قائلاً :

ــ هذه يآبنتي مغالطةٌ شائعة على الْأَلْسنة – مع الْأَسَف – ، والواجِبُ تَصْحيحُها ، فَـ « مِصْرُ » و« النّيلُ » كلاهُما هِبَةُ الله تعالى !!!

ثِمَّ نَظَر إلى ساعتِهِ وقال :

ــ لقد آمْتَدَّ بنا الحديث ياجماعة ... ، هيًّا إلى السَّيارة نُتابعُ الرِّحْلة ، ولسوْف نُتِمُّ حديثنا – إن شاء الله – في وقْت لاحق .

* * *

[﴿ وَتَرى الأرْض هامِدَةً ﴾]

بَلَغَ أفراد الْأُسْرةِ مَقْصِدِهُم ، وآنْتَهُوا إلى مصيفهِم ... ، ونَزَلُوا الدّار ... ، وكانَتْ عبارَةً عن بناءٍ من دَوْرَيْن ، الْأَسْفَلُ للمعيشة والأعلى للنَّوْم والراحة ... لهُ شُرْفةٌ واسَعَةٌ تطُلُّ على رمالِ الشاطىء الصَّفْراء ... حُيْث تتكسَّر أَمْواج مياه الْبَحْر ... فَتْرغي وتُزْبِد ... ، مياهُ الْبَحْر المالحة ، الزرْقاء بلوْنِ السَّماء ... المُمْتدَّة إلى الْأُفُق ، تَمْخرها زوارق الصيادين الصغيرة ، في رواحٍ ومجيءٍ ... ، وكذلك السُّفُن الضّخْمة الضاربة في عُرْض الْبَحْر ...

* * *

وأَخْلَدَ الجميع لِلّراحةِ بَعْد تناوُلِ طعام الغداء ،

وقُبَيْل الْغُروب كانُوا جميعاً يَسيرُون على الرمالِ الرَّطْبة ، المبلَّلة بالماء ... في خُطي متثاقلةٍ بطيئة ، يتنشَّقونَ النَّسيم ويتريّضُون ، ويُسَرِّحُون الْأَبْصار فى كُلّ ما حَوْلهم ...

وكانَتْ مُتْعةُ « أَيْمن » و« عائشة » في مُداعَبَةِ الْأَمْواج ... بالإِقْدام عَلَيْها وهي تتراجَعُ ، أو الهروب مِنْها حين تَزْحفُ ... ، وقد تبلَّلَتْ أَطْراف ثيابهما ... ، في لِهْوٍ بريءٍ وركْضٍ وتوقّف ، ودَورانٍ حَوْل الْأَبويْن السعيدين بسِعادَةِ الأَوْلاد ...

وبَعْد أَداءِ صلاة الْعِشاء جَلَست الْأُسْرَةُ على الشَّرْفة ... لِلسَّمَر والتمتُّع ... كان القمر بَدْراً في ليْلة التَّمِّ تنسكبُ أَنْوارُهُ على صفحة

الماء فَتبدُو في لمعانها وبريقها كَأنّها الفِضَّةُ المُذابة ، والنسيم بَليلٌ عليل ... رطْبٌ مُنْعِش ... والهدوء يلفُ المكان ...

وتحدَّثَ « أبوأيْمن » مُتابعاً حديثَهُ السابق فقال :

ـــ يا« عائشة » ... ياآبنتي ... لستِ وَحْدَكِ التي لفت نظرها وشَدَّ آنتاهها ظهور النّبات والزَّرْع في الأرْض الجدْباء بعْد سَقْيها بالماءِ ، وليْست الأرض الصَّحْراويَّةُ وَحْدها هي الّتي تَنْتشي وتَحيْا بسُيُولةِ الماء في عُرُوقها كافَّة ... ، بَلْ كُلُّ عاقِلٍ يُدْركُ هذه الحقيقة بالمعاينة ، وكُلُّ أرضٍ مُهَيَّأة لذلك ... ،

اسْمَعي ... وتدبَّري ... ، يَقُول الله تعالى في القرآن الكريم :

﴿ وترى الأَرْض هامِدَةً فإذا أَنْزَلْنا عليْها الماء آهْتَزَّتْ ورَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بهيج ﴾(١)

ويقول سُبْحانَهُ :

﴿ ومن آياتِهِ أَنَّك ترى الأرض خاشِعة فإذا أَنْزَلْنا عليها الماء أَهْتَزَّت ورَبَتْ إن الّذي أَحْياها لَمُحْيي المؤتى إِنَّهُ على كُلِّ شيْءٍ قدير ﴾(١)

قال « أيْمن » :

---

(١) سورة الحج من الآية (٥) .

(١) سورة فَصِّلتْ ، الآية (٣٩) .

ـــ لقد وَصَفَ الله تعالى الْأَرْض في الآية الأولى بالْهُمُود ... وفي الآية الثانية بالْخُشُوع وليس من شَكٍّ بِأَنَّ لِكُلٍّ من الْوَصْفَيْن مدلوله ومعناه ... وغرضَهُ أَيْضاً ...

قال « أبو أَيْمن » :

ـــ إن ماتلوْتُه أَوّلاً هُوَ جُزْءٌ من آية يَقُول الله تعالىٰ في مطْلعها :

﴿ ياأَيُّها الناسُ إن كُنْتُم في رَيْبٍ من البعْث فإنا خَلقْناكم من ترابٍ ثُمّ من نُطْفةٍ ثُمّ من عَلَقَةٍ ثُمَّ من مُضْغةٍ مُخَلَّقةٍ وغير مُخَلَّقه لنُبيِّن لكم ونُقِرُّ في الْأَرْحام مانشاءُ إلى أَجُلٍ مُسمّى ثُمّ نُخْرِجُكم طِفْلاً ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكَم ومِنْكُم من يُتوفى ومِنْكُم من يُرَدُّ إلى أَرْذلِ العُمُر لِكَيْلا يَعْلَمَ من بَعْد عِلْمٍ شَيْئا ... وترى الْأَرْض هامِدَةً ... ﴾الآية .

وقالت « عائشة » في لَهْفةٍ :

ـــ يَعْني أَنَّ الْهُمُود هُوَ الموْت ... ، صحيح ... أَلَسْنا نَقُول : جُثّة هامدة ؟!

فَرَدَّ « أبوأَيْمن » :

ـــ هذا اسْتِنْتاج عظيم يا« عائشة » ...

ثُمّ قالَتْ :

ـــ إنّهُ الرَّبْط بَيْن المْوتِ والْبَعْث ... لا إلٰه إلاّ الله ... وسُبْحانَ الله ...

قال « أبو أيْمن » :

ـــ هُناك أوْضح مما ذكْرت ، إذ يقول الله تعالى في سورة « يٰس » :

﴿ وآيَةٌ لهُم الأرْض الميْتَةُ أَحْيَيْناها وأَخْرجْنا منْها حَبّاً فمِنْهُ يأْكُلُون * وجَعَلْنا فيها جَنّاتٍ من نَخيلٍ وأَعْناب وفَجَّرْنا فيها من الْعُيُون * لِيأْكُلُوا من ثَمَرِه وما عَمِلَتْه أيديهم أفلا يَشْكُرون * سُبْحان الذي خَلَق الْأَزْواج كُلّها مِمَا تُنبِتُ الأرض ومن أَنْفُسهم ومِمّا لايَعْلَمُون ﴾ .

قالت « أمُّ أيْمن » :

ـــ سُبْحان الله الذي لا يَعْزُبُ عن عِلْمِهِ مثقال ذَرَّةٍ ... ، كَأَنِي أَسْمَعُ الآية الشريفة للمرَّة الْأُولى ... ، فالله جَلَّ جلاله لايَغْفل عن الإشارة إلى عَمَل الإنسان وجهده فيقُول :

﴿ وماعَمِلَتْهُ أَيْديهم ﴾

قال « أَبُو أَيْمن » :

ـــ نَعَمْ ... صَدَق الله العظيم ...، ولكن الْعَمَل - يا أَعِزّائي - يكون وِفْق النّظام الربّاني والنامُوس الكوْني الّذي سَنَّه الله تعالى للأشياء والمْوجُودات ، وهُو لايتخلَّف أَبَدا .

وتثاءَبَتْ « عائشة » ...

فقالت « أم أيمن » :

ـــ أَشْعُرُ بالنُّعاس يَسْري في أَوُصالي كُلّها ...

قال « أبوأَيْمن » مُعلِّقاً :

ـــ لقد لقينا من سَفَرِنا الْيَوْم نَصَبا ...

وقام من مَقْعَدِهِ بادِيَ التَّعَبِ والإِرْهاق ، وقال :

ـــ تُصّبْحِون على خَيْر ...

ولَحِقَهُ الجميع ، كُلٌّ إلى فراشِهِ ....

* * *

[﴿يُخْرِج الحيَّ من الميِّت ويُخْرِج الميِّت من الْحَيّ ويُحِيْي الأَرْض بَعْد مَوْتِها وكذلك تُخرَجُون﴾][1]

ـــ أَيْن « أَيْمن » ؟

قالها الوالد وقد جَلَس مع زَوَجَتِهِ وآبْنَتِهِ « عائشة » إلى مائدة الإفطار ، وغاب عنها « أَيْمن » ... ،

فَردَّتِ « عائشة » :

ـــ لَقَد رَأَيْتُهُ مُنْذُ لحظاتٍ في حديقة الدّار ، جالساً تَحْت إحدى الأَشْجار ... ، ساهِماً يَنْظُر إلى الأغصان ، فلم أَقْطَع عليه تأَمُّله ...

ثم نَادَتِ الْأُمّ من الشُّرْفَةِ على « أَيْمن » وَدَعَتْه إلى تناول فطور الصَّباح ...

فَحَضَر وَجَلَس بَعْد أَنْ حَيّا ... ، فقال « أَبُو أَيْمن » :

ـــ أَيْن كان فَيْلَسُوفُنا الصَّغير ؟

---

(١) سورة الروم ، الآية (١٩) .

قال « أَيْمن » وهو يَبْتسم :

ــ لقد أَيْقظتْني زقْزقَةُ العصافير وهي تَسْتَقْبل الصَّباح بِتَغْريدها الْعَذْب ... ، ولمّا تُشرِّق الشّمْس بَعْدُ ... ، فجلَسْتُ في سريري أَرْقب حركة الأطيار فَوْق الْأغصان ... ، بَعْضُها يَطير ويغيبُ قليلاً ثُمّ يعودُ وفي مِنْقاره شَيْءَ يحْمِله ... ، وبَعْضُها قابعٌ في عُشِّهِ يُطلُّ برؤوسِهِ الصغيرة مِنْها ...

ثُمّ نزلْت إلى الحديقة أُتريَّض قليلاً ، لكنَّ عالم الْأَطيار شَدَّني إليه ثانيةً ، فَجَلْستُ أَتأَمل سَعْيه وعمله ونظام حياتِهِ ...

وقاطعه « أبوأَيْمن » قائِلاً :

ــ تناول إفطارك الآن ... ، ويَبْدو لي أنك تَسْتَعْجِلُ الْأَبحاث ... يا« أَيْمن » ، فَقَدْ كُنْتُ أُفكِّر في هذا الموضوع بالّذات ، ولكن أَرْجَأْتُ الحديث عَنْه ريْثما أُتَمِّمُ كلامي عن الْأَرْض ...

قالت « عائشة » :

ــ يَظْهَرُ أَنَّ مَوْضوع الأرض وآيات الله فيها مُتَشعبٌ ...

فقالت « أُمُّ أَيْمن » :

ــ إنّ آيات الله ياآبنتي في الكوْن كُلّه لاتنْقضي ... ، وآلاؤه ومعجزاتُه وبراهينُه لا تُحْصى ولا تُعَدّ :

﴿ قُلْ لَوْ كان الْبَحْر مِداداً لكلماتِ رِبّي لَنَفِدَ الْبَحْر قَبْل أن تَنْفَدَ كلماتُ ربّي وَلَوْ جئنا بِمِثْلِهِ مَدَدا ﴾

قالت « عائشة :

ــ صَدَق الله العظيم ... ، هَلْ أُحَدِّثُكُم بِسِرّ ..؟

قال « أُبو أَيمن » :

ــ وما هُو ؟

قالت « عائِشة » :

ــ لقد أُثارَتْ سُورة (الرَّحَمن) في القُرْآن الكريم آنْتباهي ذات يَوْم وأنا أَقرأُها ، إِذْ يَخْتم الله تعالى كُلَّ عَرْضٍ لِصُورةٍ من صُوَر الإِبْداع الكَوْنيّ ونظامَهُ الدقيق العجيب بِقَوْلِهِ :

﴿ فَبأَيِّ آلاءِ رَبّكُما تُكذِّبان ﴾ ...

وقبْل أَنْ تُتِمَّ كلامها قال « أَيْمن » :

ــ وأَيْن السِّرُّ في ذلك؟

فَأَجابَتْهُ مُحْتَدَّةً :

ــ تُقاطِعُني دائماً ... تريدُ إِغاظتي ... وَكأَنَّك وَحْدَك المفكّر والفيلَسُوف ؟ لا تَغْتَرَّ بِنَفْسِك !!!

وتَبَّسم « أَيْمن » ... فزادَتْ من ثَوْرتها ، فهدأ والدها من

خدّيها ومَسَحَ على شَعْرها ونَظَر إلى « أيْمن » نَظْرة عتابٍ ...، فَأَغْضى ببصَرِه حياءً ...

ثُمّ الْتَفَتَ إلى « عائشة » وقال :

ـــ أَتِمّي حديثك يا« عائشة » ...

فقالَتْ :

ـــ لقد أَحْصَيْتُ قوْل الله تعالى فى السَّورة ﴿ **فَبأَيّ آلاء ربّكْما تكذّبان** ﴾ ... فَوَجَدْتُ العدد واحداً وثلاثين مرَّةً ...

وكذلك دَقَّقْتُ في الْخطاب لِلْمُثنّى ، فَأَدْرَكْتُ أن المقصود عالم الإنْس وعالَمُ الْجِنِّ ...

قال « أبو أَيْمن » :

ـــ ومن أين أدْركْتِ ذلك ؟

قالت :

ـــ من قَوْلِهِ تعالى بَعْد الاسْتِفْهام الْأَوّل :

﴿ **خَلَقَ الإِنسان من صَلْصالٍ كالْفَخّار * وخَلَق الجانّ من مارجٍ مِنْ نار** ﴾

ثم قوْله تعالى :

﴿ **سَنَفْرُغ لكُم أُيها الثَّقلان** ﴾

وقوله جَلَ جلاله :

﴿ **يامَعْشَر الجنّ والإِنْس إن آسْتطعْتُم أن**

تنفُذوا من أقطار السماوات والأَرْض فَانْفُذوا لا تَنفُذون إلاّ بِسُلطان ﴾...

وسَكَتَتْ « عائشة » ...

فقال « أبو أَيْمن » :

— هذا رائع وجميل ، ويُبَشِّرنا أَيْضاً بميلاد فيلْسوفةٍ عالمِةٍ ... ، ماشاء الله ... ؛ ولكنّي ... كُنْتُ أُريدُ أَنْ أُحدِّثكما الْيَوْم عن نباتِ الأَرْض أَيْضاً وأُخْتم الْكلام ...، وهُوَ حديث يَرْتَبطُ ارتباطاً وَثيقاً بقَوْل الله تعالى :

﴿ يُخْرج الحيَّ من الميِّتِ ويُخْرج الميّت من الحيّ وَيُحْيي الأَرْض بَعْد مَوْتها وكَذلك تُخرجُون ﴾

إِنّكم لم تُشاهدوا – حتى الآن – كيْف تَخْرُج سنابل الْقَمْح من باطِنِ الأَرْض مَثَلاً ... ، إنها في الأصل حبّاتٌ جامدة بُذرَتْ في الأَرْض ثم تستقرُّ فيها زمناً ، تَتَلقّى الماء والغذاء ، وبعد فَتْرةٍ تَنْغَلِقُ وتَنْشَقُّ ويَخْرُجُ مِنْها بُرْعُمٌ أَخْضر ... رقيق دقيق ، طريٌّ ناعم ... ، وقَبْل أن يتم « أبوأيمن » كلامَهُ قالت « عائشةُ » :

لقد رَأَيْت مايُشْبه هذا ياأَبي ... ، عِنْد آبْنةِ خالَتي « هالَةَ » ... لدى زيارتي الأخيرة لها ، إذْ رأَيْتُها تَقِفُ عند النّافذة أمام طبق فيه حبّاتٌ من شعيرٍ فوْق طبقةٍ من الْقُطْنِ المُبلَّل بالماء ، وقد خَرَجَتْ

براعِمُها الخضراء ... ، وآنتصبت ، فلمّا سَأَلْتُها عن ذلك ، أَجابَتْني بأَنها تُطبِّق دَرْساً من دُروس العُلوم ...

فقال « أبوأَيْمن » :

ــ تماماً ، وهذا صحيح إلى حدٍّ ما ... ، ولكن هذه البراعم لن تُثْمر ولن تؤتى أُكُلاً لِأَنَّ أَسْباب الغذاء لم تتوفَّر لها ...

قالَتْ « أُمُّ أَيْمن » :

ــ سُبْحان الله ... سُبْحانَ فالق الحبِّ والنّوى ...

ثُمَّ تَلَتْ قَوْل الله تعالى :

﴿ إنّ الله فالِقُ الحبِّ والنّوى يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت ومُخْرِج الْمَيِّت من الحي ... ذٰلِكُمُ الله فَأنّي تُؤفكُون ﴾

فقال « أَيْمن » و« عائشة » :

ــ لا إلٰه إلاّ الله ...

وقال « أبو أَيْمن » :

ــ هلاّ أَكملْتِ الآيات يا« أُمّ أَيْمن » ... فإنّ فيها الْعِظَةَ الكُبْرى والآية الْعُظمى .!؟

فقالت « أُمُّ أَيْمن » :

﴿ فالِقُ الإصْباح وجَعَلَ اللَّيْل سَكَناً

والشَّمْس والْقَمَر حُسْباناً ذٰلِكَ تَقْديرُ الْعَزيز الْعليم ﴾[1]

وردَّد الجميع :

ـــ صَدَق الله العظيم

ثم أضاف « أبوأَيْمن » يَسْأَل « عائِشة » :

ـــ هَلْ لَمَسْتِ يا« عائِشة » أَحَدَ البراعم الّتي شاهَدْتها ؟ ومااللذي حَدَث ؟

قالَتْ :

ـــ نَعَم ... فَلَقَدْ أَمْسكْتُ أَحَدَها بأصْبَعَيَّ ... بِرِفْق بالِغٍ ... فانْثنى وتمايَلَتْ حَبَّتُهُ أَيْضاً ...

قال « أبوأَيْمن » :

ـــ إن هذا ماقصدْتُهُ ياأَعزائي من الحديث ... ، ذلك أَنّ هذا الْبُرْعُم النَّديّ الطريّ ، الذي يَنْثَني ويَهْتَزّ ، وقد يَتمزّق بَيْن الأصابع الناعمة الرقيقة ... ، يَشُقُّ طريقهُ في الخروج من باطن الأرض وَسْط التُّراب والحصى ... فلايُخْدش ... ولايَصُدُّهُ عن غايتِهِ شَيْء ... ذلك تَقْدير العزيز العليم ،

وصَدَق الله العظيم إذْ يقول :

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات (٩٥-٩٦) .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنا الأَرْض شَقّاً * فَأَنبَتْنا فيها حَبّاً ﴾(٢)

* * *

[﴿ وما مِنْ دابَّةٍ في الْأَرْض ولا طائر يطير بِجناحَيْه إلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكم ﴾]

بَيْن الْعَصْر والمغرب ...

جَلَس « أبوأَيْمن » والعائلة تحت مِظلَّةٍ على الشّاطئ ، يتنشّقون نسيم الْبَحْر ، ويستمْتعون برطُوبة الهواء ... ، ويستمعُون إلى وشْوَشةِ الأمواج حيناً ... وزمجّرتها حيناً آخر ...

ولَحَظَ « أَيْمَنُ » طُيُوراً ... أَسْراباً ... تُحوِّم فَوْق المياه ، قريباً من الشاطئ وبعيداً عَنْه ، ثُمّ يَنْقَضُّ بَعْضُها بِسْرْعةٍ خاطِفَةٍ على صَفْحةِ الماء ... ثُمَّ يُحلِّق في الفضاء ، وكأَنَّهُ الطائرة الْمُغيرة ...

فَسَأل أَباهُ قائِلاً :

ـــ أَنْظُر ياأبي إلى تِلْك الطُّيور كيْف تَنْزل في ماء الْبَحْر ثُمَّ تَخرجُ مِنْه ... ماذا تَفْعل ؟

---

(٢) سورة عبس ، الآية (٢٧) .

فقاطعت « عائشة » :

ــ لعلَّها تَشْرَبُ ؟

فقال « أَيْمن » :

ـوهل تَشْرَبُ ماءً مالِحاً !!؟

قال « أبو أيمن » :

ــ لقد لَفَتَ نظرُكَ بالْأَمس يا« أَيْمن » مَشْهَدُ العصافير على شجرةِ الحديقة المجاورة لنافذة غرفتك ، كيْف تَغْدو وتروح ... ، كيْف تُغادر أَوْكارها ثُمّ تعُودُ إليها وفي مناقيرها أَحْمالُها ...

إنّ عالَمَ الطَّيْر ياأَوْلادى أُمَمٌ أَمْثالُنا ، لها نُظُم معيشتها وحياتها ، لها قانُون تتعاطى من خلالِهِ مع الحياة ... ، تزاوجاً وتكاثُراً ونَمُوّاً ... ، وسَعْياً على الرِّزْق ، وحمايةً وأَمْناً ... ، وغير ذلك .

وهذه الطيور التي تراها أَسْراباً تطير فوق مياه الْبَحْر ، تارَةً في عُلُوٍّ شاهق ، وتارةً تكادُ تُلامسُ سَطْح المياه ... ، يَقُوم غذاؤها على الْأَسْماك ... ، لها بحُكم الغريزة التي أَوْدَعها الله تعالى فيها أَعْين حادَّة الرؤْيَه ، ترى فريَستَها من تحْت كثافةِ الماء ... فَتَهجُم عليْها وتصطادُها ...

* * *

وأَمّا العصافيرُ التي شَدَّتْك إليْها ، ولم تتبيَّن ما تحمل في مناقيرها ... ، فإنّها في خروجها وسَعْيها إنّما تَبْحَثُ عن قَشَّةٍ تحْملها

فَتُدَعِّم بناء الْعُشّ ، أَوْ شَيْءٍ ناعِمٍ تَضَعُهُ فيه كالْمِهاد ... ،أَوْ حَبٍّ تأتي بِهِ إلى ،أَفْراخِها المُولودة حديثاً تُطْعِمُها وتُغذّيها ...

ولَيْتك تُشاهد أَيْضاً مَنْظر تدريبها لهذه الْأَفراخ على الطَّيران حين تَبْلغ المقدرة على ذلك ، فهذا يُذَكّرك حَتْماً بِمَنْظرِ الَأَهْل وهُمْ يُدَرّبُون أَطفالهم على المشْي وقد آستوى عُودُهم على سُوقِهِ ...

وزقْزَقَةُ العصافير ، وتغريدُ الطُيور ... وأصْواتُ الجوارح مِنْها ... ، لُغَةٌ يتفاهمون بها ويتحَّدثُون ، وتسبيحٌ وتمجيدٌ لله عَزَّ وَجَلّ ...

وصَدَق الله العظيم إِذْ يقول :

﴿ ولكن لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُم ... ﴾

* * *

وكذلك دَوابُّ الأرض – أيها الْأَعِزّاء – ، من أَصْغَرِها حَجْماً ووزناً إلى أَضْخمها وَأَثْقلها ... ، عوالِم لها نظام حياتها ، وأُمَمٌ لها قانونُها وشريعتُها ...

ولْنَأْخُذْ عالم النَمْل مَثَلاً ... مع آختلاف أَنْواعه وأجناسِهِ ...

تلْك الْحَشَرَةُ الصغيرةُ الدَّؤوب ،

لا تراها مُتَوَقّفةً أَبَداً !!! لا تعرف الْكَلَل ولا الملل ... ، إنَ آعْتَرضها حاجِزٌ دارَتْ حوْله ... ، تدِبُّ فَوْق سَطْح الْأَرْض هُنا وهُناك ... ،

إنْ أَعْياها وحيدةً حَمْلِ رِزْقٍ ، تعاوَنَتْ مع غَيْرِها عَلَيْه ... ، فعالمُها حقاً عالَـمٌ مُتعاوِنٌ بكُلِّ مافي الكلمة من معنىً .

ثُمّ تراها تغوصُ في باطِنِ الْأَرْض وتَخْتفي ...

إلى أَيْن ؟

إلى قُراها ومُدُنها ، إلى بُيُوتها ومساكنها ... ، وهُنا الرَّوْعةُ والجلال ... وعظمة الخالق سُبْحانه الذي أَوْدَع في هذا المخلوق الضعيف غريزةً غايةً في الْفَنّ الهندسيّ !!!

طُرقات وشوارع مُسْتقيمة ، كأنها رُسِمَتْ بالمسْطرة ، ليس فيها أَدْنى الْتواء ولا اَعْوجاج ، في طبقاتٍ مُتعدِّدة ، بالغة العُمْق ، تحْمي غِذاءَها الْمُدَّخر ...

قالت « عائشة » :

ــ ولماذا تَدَّخِرُ يا أبي ؟

وأجاب « أبُو أَيْمن » :

ــ لِأَنّ هذه الحشرة قليلاً ماتَسْعى وتخْرُج في فَصْل الشِّتاء ... فَصْل الأمطار الغزيرة ، وهي إن خرَجت في يَوْم مُشْمس فَلِتْحمِلَ بَعْض ما أصابَتْه الرطوبة أو الْبَلَلُ من طعامها ... تُعرِّضُه لِشُعاع الشمس وحرارتها كيّ تِجفّ ، ثم تُعيدُهُ إلى المخْزن !!!

* * *

قال « أيْمن » :

ـــ لقد خطَر ببالي أَمْر ... وَهُوَ تَسْمِيَةُ إِحْدى سُوَرِ القُرآن الكريم بِـ « سُورة النَّمْل » ...

وأضافَتْ « عائِشة » :

ـــ وأُخرى بـ « سُورةِ النّحْل » ...

فَتَبسَّم « أبوأيْمن » مُعْجبا ، وآتسعتْ حدقتا عَيْنِيْه ، ثم قال :

ـــ إنكما – ياوَلَدَيَّ – تُنْبئاني بمُسْتَقبل عِلْميّ أَرْجوهُ لكما وأَتمنّاهُ ، مَعَ مزيدٍ من الإيمان ورسُوخ العقيدة ... ، بارَك الله فيكُما وَرَعاكُما ...

وسَكَتَ قليلاً وهُوَ يَتَفَرَّس في وَجْه « أُمّ أيْمن » التي لاحَ في عينيْها بريق دَمْعتيْن حائرتيْن ، حَرّكتْهما العاطفة ، وأجاشَهُما الْحُبُّ ...

ولم تتمالكْ نَفْسها ، فآحْتَضَنت ولديْها ، وغمرَتْهُما بالْقُبلات .

* * *

ثُمّ تابَعَ « أَبو أيْمن » الحديث ، فقال :

ـــ أمّا عالم النَّحْل فإنَّهُ مَن قُدْرَةِ الله تعالى وعظمته بمكانٍ كبير ... ،

قال عَزّ من قائل :

﴿ وأَوْحى ربُّك إلى النّحْل أَنِ أتَّخذي من

الجبال بُيُوتاً ومن الشَّجر ومِمّا يعرشُون * ثُمّ كُلي من كُلّ الثمرات فٱسْلُكي سُبُل ربِّك ذُللاً يخْرجُ من بطونها شرابٌ مختلف أَلْوانهُ فيه شفاءٌ للناس إنّ في ذلك لآيةً لِقوْمٍ يتفكَّرون ﴾[1]

* * *

إنّ في كُلّ صُورةٍ من صُوَر حياة هذا العالم العجيب موقف يستدعي التَّأمُّل والتَّفكُّر ، ثُمَّ يَسُوق العُقلاء سَوْقاً إلى الإيمان بالله جَلَّ جلالُهُ ، ويهديهم إلى الحقّ إلى صراطٍ مُسْتقيم ...

فَخَليَّةُ النَّحل ... بَيْتُهُ ومسْكنُهُ ومَأْواهُ ، ماتَزالُ مَضرِبَ الْمَثَل بَيْن النّاس ، ذوي العقول والأَفهام ، ومَوْضع الإعْجاب والتَّقْدير ، بسبب بنائها الهندسيّ ...

إنّ النّحْلة لم تَدْرُس في مدرسة ، ولم تتخرَّج من جامعة ، ولم تُحصِّل دراسةً هندسيَّةً عالية ،

ولكنّها مَخْلُوقٌ صغيرٌ ضَعِيف ... ، من الحشرات الطّائرة .. ، قد رُكِبَتْ فيها غَريزة ، من خلالها تتحرَّك وتسْعى ، وتَبْني وتَعْمل ... ، ولانستطيعُ أَنْ نُسمّيه عِلْماً ، بَلْ هَدْياً من الخالق العظيم .

فتبارك الله أَحْسَنُ الخالقين .. !

---

(١) سورة النحل ، الآية (٦٨) .

وأَيْضاً عَسَلُها ...

ما تجْنيه من الْأَزْهار ،

تمتصُّ الرحيق وتخْتَزِنُه ، ثُمَّ تَمُجُّهُ في الخليَّة ، لا لِنَفْسها ولكنْ لِغَيْرها ... ، تراها أَسْراباً كأَنَّها الخطوط المتصلة ، بَيْن الزَّهْر والْخَلِيّة في دَوِيٍّ شديد ...

قالت « عائِشة » :

ــ من أَيْن مَصْدَرُ دَوِيّ النّحْل يا أَبي ؟ هَلْ هُوَ من أفواهها ؟ ولماذا هذا الدَّويّ ؟

فأجاب « أَبُو أَيْمن » :

ــ إنَّهُ صفْق أَجْنِحَتِها وهي تَخْتَرِقُ الْفَضاء .. ، وهُو يُشْبهُ صَوْتَ الْمِرْوحَة ...

قالت « عائشة » :

ــ فَهِمْتُ ... ، ولا أَكْتُمُك ياأبي أَنّني أُحبُّ مذاق الْعَسَلِ جدّاً ...

فقالت « أُمُّ أَيْمن » وهي تحتضِنُها :

ــ هذا واضِحٌ يا« عائشة » من أهتمامك الدائم بِطَبَق الْعَسَلَ على مائدة الإفطار .. !!

وضَحِكَ الجميع .

وأضاف « أبو أَيْمن » يَقُول :

ــ ولايتوقّف موضوع الْعَسَل على الطَّعْم والمذاق والغذاء ...

بل يتعدى ذلك إلى الشّفاء ، من كثيرٍ من الأمْراض الصَّدّريّة ...

وهو في تناوُلِهِ وقايةٌ خَيْر من علاج ...

وصَدَق الله العظيم إذْ يقول :

﴿ فيهِ شِفاءٌ لِلَّناس ﴾

* * *

والْتَفَتْ « أُمُّ أَيْمن » إلى الزَّوْج قائلةً :

ــ أُحِسُّ بِلَذْعةِ بَرْدٍ ... ، لَقَد سَرَقنا الْوقْت من غيْر أَنْ نُحِسَّ بِهِ ... ، فالشَّمْس تُوشِكُ أَنْ تَغْرُب ...

قال « أبو أَيْمن » :

ــ الحقُّ مَعَك ... ، هيّا بنا إلى الدّار ...

* * *

[﴿ والأرْض ذات الصَّدْع ... ﴾]

في المساء وخلال مشاهدة شاشة التلفزيُون ، والاستماع إلى نَشْرةِ الْأَخبار ، عَرَض المذيعُ إلى صُوُرٍ ومشاهد عن زلْزالٍ وَقَع في إحْدى الدُّول ... فَدَمَّر بعض المساكن ... وشرّد أَهْلها ... وراح كثير من الضحايا ...

فقال « أَيْمَنُ » مُعَلِّقاً :

ــ بالْأَمس كانَتْ مشاهد ومناظر عن تَشَقُّق الْأَرْض أخاديد عميقة بسبب الجفاف وآنعدام الأمطار في بَعْضِ أَنْحاء من القارّة الافريقية ، وكَيْف يُعاني الناس من ذلك ... حتى إن جُلُودهم الْتَصَقَتْ بعظامهم فبدوا كالهياكل ...

والْيَوْم مشاهد عن ثَوْرة بُرْكانٍ وزلْزلةٍ في الْأَرْضِ .. !!

فما بالُ الناس يا أبي لايَتّعظون ، وإذا قُرِئ عليهم القُرآن لايَسْجُدون .. ؟؟ إيماناً وتسْليماً وخضوعا .. !!

ورَدَدَّ « أَبُو أَيْمن » :

ــ إنَ شأْن الإنسانِ يابُني عجيب ... ، فَأَكْثر الناسِ في حالاتٍ كهذه يَفْزعُون إلى الله تعالى فَزْعةً آنّيةً مُؤَقّتة ، فإذا ما آنكشفتْ عَنْهم الغُمَّة وآنْزاحت عَنْهم البليَّة عادُوا إلى سابقِ طُغيانِهم وجَبرُوتهم ...

إنّهُ الإنسانَ الذي قال فيه الله تعالى بأَنّه خصيم مُبين :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسانُ أَنّا خلقْناهُ من نُطْفَةٍ فإذا هُو خصيم مبُين ... ﴾[1]

كما صَوَّر سُبْحانَهَ وتعالى في آياتٍ أُخَر هذا الكُنُود والجحود في الإنسان ، فقال :

---

(١) سورة يسۤ ، الآية (٧٧) .

﴿ إنّ الإنْسان خُلِقَ هَلُوعا * إذا مسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعا * وإذا مسَّه الْخَيْر مَنُوعا ... ﴾

قالت « أُمُّ أَيْمن » :

— ﴿ إلاّ المصلِّين ... ﴾

فَردَّ الزُوْجِ :

— هذا حقٌّ وَصِدْق ...

ولكن مابالُنا نَتَحوَّل عن مَوْضوعنا الْأَساسيّ .. !؟ ثم الْتَفَت إلى « أَيْمن » وقال :

— لقد جَرَّنا إلى ذلك تساؤلك ياعزيزي ،... ، على كُلّ حال فإنّ بَيْن المشاهد الحسِّيَّة في الزلازل وثورات البراكين وتشقُّق الأرض من الجفاف ... وبَيْن الإيمان بالله أَوْثق آرْتباط وأَمْتن صِلة ...

إنّها — يا« أَيْمن » مؤشّرات ودلائل ، وإنذارات ... ، لما هُو أكبر وأَعْظم وأشدّ هوْلا ... ، إسْمَعُوا بَعْضَ الآيات والنُّذُر :

﴿ إذا زُلْزِلت الأرضِ زِلْزالها * وأَخْرجتِ الأرض أَثْقالها * وقال الإنسان ماها ... ﴾[1]

﴿ القارِعَةُ * ما القارعة * وما أَدْراك ما القارعة * يَوْم يكون الناس كالفراش المَبْثُوث *

---

(١) سورة الزلزلة الآيات (١ —٣)

وتكونُ الجبالُ كالْعِهْنِ المنْفُوش ... ﴾[٢]

﴿ إذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً * وبُسَّتَ الجبال بَسّاً * فكانَتْ هباءً مُنْبُثّا ... ﴾[٣]

﴿ وسُيِّرت الجبالُ فكانَتْ سرابا ﴾[٤]

﴿ يوم تَرْجُفُ الْأَرْضُ والجبال وكانَتِ الجبالُ كثيباً مهيلا ... ﴾[٥]

﴿ وحُمِلَتِ الْأَرِض والجبالُ فَدُكّتا دَكَةً واحدة ... ﴾[٦]

ويسألونَكَ عن الجبال فَقُلْ يَنْسِفها ربّي نَسْفاً * فَيذَرُها قاعاً صَفْصَفا * لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتا ... ﴾[٧]

* * *

---

(٢) سورة القارعه الآيات (١ - ٥)

(٣) سورة الواقعه الآيات(٤ - ٦)

(٤) سورة النّبأ ، الآية (٢٠) .

(٥) سورة المزّمل ، الآية (١٤) .

(٦) سورة الحاقّة ، الآية (١٤) .

(٧) سورة طه ، الآيات (١٠٥-١٠٧)

قالت « عائشة » :

ــ ماالْعِهْنُ المنْفُوشُ يا أبي ؟

فقال « أَبو أَيْمن » :

ــ دائماً تَتعجّلين الأمور يا« عائشة » ... رُوَيْدك ياآبْنتي ... فإنّ في الآيات أكثر من مَعْنىً بحاجةٍ إلى بيان ...

فالْعِهْن هو الصُّوف أو الْقُطْنُ ، والمنفوش : المنْدوف ، وبُسَّت : هُزت هَزّاً عنفاً ، والهباء الْمُنْبَثّ : هو الذَّرَّاتُ الضّعيفة تذروها الرياحُ في الفْضاء ، والكثيب المهيل : هو التُّل من الرّمْل تَشْتد به الريح العاصفة فَتُسوِّيه بالْأَرْض ...

* * *

وغير ذلك من الآيات كثير وكثير ...

وَصَدَق الله العظيم إذا يقول :

﴿ والْأَرْض ذاتِ الصَّدْع ... ﴾ أي االتشقّق، ... ، سواء كان ذلك في الحياةِ الدُّنْيا ليرى الإنسان بأُمّ عَيْنِهِ قُدْرة الله تعالى ، فيتدبَّر ويخْشى .. ، أَوْ كان ذلك عِنْد قيام السّاعة ، وزوال الموجُودات جميعاً ..

﴿ والأَرضُ جميعاً قبْضَتُهُ يَوْم القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بيمينِهِ ... ﴾[8]

---

(٨) سورة الزُّمر ، الآية (٦٧) .

قالت « أُمُّ أيْمن » :

﴿ كُلُّ مَنْ عَليْها فانٍ ويَبْقى وَجْهُ ربِّك ذو الجلال والإكْرام ﴾

وردَّد الجميع بُخشوعٍ :

ــ لا إلٰه إلاّ الله ...

[والْجِبالَ أَوْتادا]

وقالت « عائشة » بعد فَتْرةٍ سُكُونٍ وسكوت ، سادَت الجميع ، قاطِعَةً حَبْل الصَّمْت :

ــ ياأَبَتُ إنّي رَأَيْتُ فوهات البراكين تعْلُو قِمم الجبال ، يخرج منها دُخانٌ ثُمّ لَهَبٌ ... تعقُبه حِمَمٌ ... ، كأنّها الْقَذائف ... ، وسُيُولٌ من نار كأنها الأَنْهار ...

والجبال هِيَ في واقع التضاريس الجغرافية أَشَدُّ ما على الأَرْض وأَعْظَمَه ... فَهَلاّ حَدَّثْتنا عنها قليلاً .. !!

ونَظَرَ « أَبُوأَيْمن » إلى ساعةِ يَدِهِ وقال :

ــ لقد آقْتَرَبَ مُنْتَصَفُ اللَّيْل يا« عائشة » ...

فقالتْ في دلالٍ وهي تَضَعُ يَدَها على كتِفِهِ ، كأنها تَرْجُوه :

— لن يَسْتغرق ذلك وقتاً طويلاً ، وَأَعِدُك بِعَدَم الْمُقاطعة ...

قال « أبو أيْمن » :

— حاضِرْ « ياسِتّي » ...

مُنْذُ مايُقارب الْنصْف قرْنٍ - تقريباً - إسْتطاع بَعْضُ الْعُلماء والباحثين ، بِفَضْل آلاتٍ تصويريّة تفتّق عنها إنْجاز « التكنولوجيا » الْمُعاصرة ، استطاعوُ أن يُصَوِّروا الجبال من أعلى قِمَمِها إلى أَسْفل ... مُخْترقين الْقِشْرَة الْأَرْضيَّة ... ، فماذا وَجَدوا .. ؟

لقد تكشْفَتْ لهُم حقيقةٌ علميَّةٌ تحدَّث عَنْها القُرآن الكريم منذ قُرونٍ عديدة – كتاب الله الذي أَنْزلَهُ بعِلْمِهِ ، والذي لا يأْتيه الباطِلُ من بَيْن يديْه ولا مِنّ خَلْفِهِ ... – ،

هذه الحقيقة أُحبَّ أَنْ أُمَهِّدَ لها بِسُؤال ؛

وَوَجَّه كلامه إلى « أَيْمن » :

— أَنْتَ يا« أَيْمن » عُضْوٌ في كشافَةِ المدرسة ، وتقومُون برحلاتٍ تَمْتَزج فيها الْمُتْعة بالمعرفة ... بالرِّياضة ... ، وتُقيمُون مُعْسكرات ... ، فكيْف تثبِّتُونَ خيامَكُم كي لا تَسْقُط فَوْقكم ؟

قال :

— بأَوْتادٍ حديدية نربط الخيام إليها عند الْأَطَراف ...

ثم أضاف « أَيْمن » :

— تذكّرت ... ، تذكّرْتُ قَوْل الله تعالى :

﴿ أَلَمْ نجعَلِ الأرْض مهادا * والجبال أوْتادا ﴾

فقال « أبوأيْمن » :

ــ هذا بالضبط مابدا للعلماء من خلال تصوير الجبال عامودياً بالآلات المستحْدثة ، لقد وجدوا أنَّ لكُلِّ جَبَلٍ ، مهما بَلَغَ عُلُوُّهُ ، جَذْراً كالْوَتِدِ تماماً يمتدُّ في الْأَرْض مخترقاً قَشْرتها السطحية الظاهرة إلى عُمْق يُوازي أَرْبَعَةَ أضعافٍ ونصف الضعف من عُلُوِّه الظاهر ...

قال « أَيْمن » :

ــ لذا فإننا حين نَضْرِبُ وتداً في الْأَرض لنثبِّت به شَيْئاً إنّما نَجْعلُ أَكْثرهُ في الدّاخل ليكون التماسُك أَشَدَّ وأَقْوى ...

وقال « أَبو أَيْمن » :

ــ وفي أكثر من مَوْضع في القرآن الكريم يُبيِّنُ الله تعالى هذه الحقيقة ، فيقول سُبْحانه :

﴿ وهُوَ الذي مَدَّ الْأَرْض وجَعَلَ فيها رواسِيَ وأنْهارا .. ﴾[1]

ويقول سبحانه مُوَضّحاً سَبَب هذه الرواسي ، التي هي الجبال :

---

(١) سورة الرعد ، الآية (٣) .

﴿ وأَلْقى في الأرض رواسِيَ أَنْ تميد بكُم ﴾[2]

﴿ وجعلْنا في الْأَرْض رواسِيَ أَنْ تميد بِهِم ﴾[3]

والْمَيْدُ هو الاهْتزاز ...

* * *

ثم ألتفت إلى « عائشة » وقال :

ـــ هل أدْركْتِ الآن يا« عائشة » هذه الحقيقة وَوَعيْتِها ؟

قالت :

ـــ نعم ... ، سبحانه وتعالى عمّا يَصِفُون ... لا إلٰه إلاّ الله وَحْدَه ...

وقام الجميع إلى أُسرَّتهم وقد تواعدوا أَنْ يَنْزِلُوا إلى شاطئ الْبَحْر ، بعد صلاة الفجْر ، وقبل بزوغ الشَّمْس ...

* * *

---

(٢) سورة النحل ، الآية (١٥) .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٣١) .

[﴿ وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْب ﴾]

كانت مياهُ الْبَحْر دافئةً بَعْض الشيْء ، قياساً على برودةِ الجوّ ...

والفجْر يكادُ يَبْزغ ، والنسائم عليلة مُنْعِشة ، ورمال الشاطئ رطْبَة ... قد بلَّلها النّدى ...

وقريباً من الْأَمْواج آفترشتِ الْأُسْرَةُ الأرض وجلست ، تُسبِّح الخالق العظيم ، وتغترف من معين جمال الكوْن وسِحْرِه

ولمّا آنْتهى « أَيْمن » من تناوُل قَدَح الشاي ، آسْتَأْذَنَ أَبَويْه في السّباحة ، وقد لاحَ بَعْضُ الضّياء ... ، فَأَذنا لهُ ، وقالت « أُمّ أَيْمن » :

ــ أَرْجُو أن لاتُقلق بالي بالآبتعادِ كثيراً ... ولا تُثير فَزَعي وخوْفي ...

فَتَبَسَّم ضاحكاً من قوْلها وهو يَعْدو نحو الْأَمْواج ، ثم أَلْقي بِنَفْسِهِ في الماء ... وراح يَسْبح ويَضْرِبُ صَفْحَة المياه بذراعيه ... مُسْتمتعاً فَرِحاً ...

كان خيالُهُ يختفي حيناً ويظهر حيناً ... ، و «أُمُّ أيمن» في لَهْفَةٍ وذُعْر ، ما تكادُ تجلس حتى تقف ، وتَنْظر إلى البعيد ... ، وتشُقُّ صَرَخاتُها سُكُون الفجر وهدوءَه ... مُناديةً على « أَيْمن » ... بالْعَوْدة ...

أما « عائشة » فقد أخذت سبيلها على الشاطئ الرمليّ إلى صخراتٍ ناتئة ، تركُضُ ... أو تهرْوِلُ ... أو تَمْشي الهُوَيْنا ... ، بمحاذاة مياهِ الأمْواج ... تاركةً ذَيْل ثوبها الطّويل يُزْحَفُ وراءها مُبْتلاً حاملاً حبّاتٍ من الرّمال ...

وعاد الغائبان « أَيْمن » و« عائشة » ...

وقد بدأ شُعاع الشَّمْس يُنير الكوْن ، ويَبْسُطَ على الطبيعة ثَوْبها الذَّهبيّ ... ، ويَبْعَثُ الحرارة في الأَحْياء ...

كان « أَيْمن » يَحْمل بَيْن يَدَيْه شَيْئا من نباتاتِ الْبَحْر ، والمحارات والأَصْداف ... ، فألقاها بَيْن يَدَيْ والديْه وجَلَس وهُوَ يلْهث ...

وجلست « عائشة » تَنْظُرُ إلى ما حَمَل أُخُوها ، ثُمَّ سَأَلتْ أباها :

ــ أرى المحاراتِ - ياأبي - تختلف شَكْلاً ولَوْناً ، وأرى بَعْضها مُغلْقا ...

وراحَتْ تُقلِّبُها بطرف أصابعها وهي حَذِرة ، ثُمّ آمْتَدَّت يدها إلى النّباتات البحريةِ تُحاول أن تستكشفها ، فآنَزلَقتْ بَيْن أطراف أناملها ، فآرتدَّت عنها يدها ، وأضافتْ تسْأل :

ــ وهذه الحشائش والنباتات مابالُها في ملْمَسها تختلِفُ عن نباتِ الأَرْض ... ؟؟

قال « أَبُو أَيْمن » :

ـــ إنَّهُ الْبَحْر يا« عائشة » ...

قالت :

ـــ أَعْرِفُ ذلك ... ولكن أُريدُ أن أَعْرِف أسرار وخفايا بَعْض جوانبِهِ ... ، فما تَلَقَّيْناهُ من دروسٍ حوْل البحار والمحيطات في المدْرسة غَيْر كافٍ ...

قال « أبو أيْمن » :

ـــ ولكنه – ياآبنتي – يتناسَبُ مع أَعْمارِكم وإمكانات تَحْصيلِكُم ... ، وكُلَّما تقدمَ بِكِ العُمْر وآرْتَقيْتِ في الدراسة عَرَفْتِ أكثر وَأَكثر ...

هنا ... قال « أَيْمن » :

ـــ لكنَّ العلوم الّتي تُعْطى لنا مُجَرَّدة ...

فَنَظر إليه والِدُهُ بِدَهشةٍ وسَأَلَهُ بِجدِّيّة :

ـــ ماذا تَعْني يا« أَيْمن » بـ « المجرَّدة » ...؟؟

قال :

ـــ مَثلاً ... حين يُدرَّس لنا بِأَنّ البحار والميحطات تُشَكِّل أكثريَّة سَطْح الأَرْض ، وأنَّ [قانون الجاذبيَّة] هو الذي يَمْنَعُ تساقُط مياهها مع الدّوران ، وكذلك الأَشْياء على اليابسة ؛ وأَنّ مُكْتشف هذا القانون هو العالم الْفيزيائي « نُيُوتن » ...

لايُذْكُر لنا على الإطلاق أي تَفْسيرٍ لمعْنى الجاذبيّة .. !!!

فَأَطْرَق « أَبوأَيْمن » قليلاً ، ثم رْفَعَ بَصَرَهُ إلى وَلَدِه وقال :

ـــ الحقُّ مَعَك يابُنيّ ... ، وهذا مايشْكو منه أكثر المربّين ، وتظْهر آثارُهُ واضحةً في مُجْتمعاتنا ، فَكُلّ المواد العلميّة خالية من الْجُذُور ، وأعني بذلك أنَّها مقطوعة السَّبب ، غَيْر مُرْتبطةٍ بالخالق سُبْحانه وتعالى الذي أَوْجدها وأَوْجَدَ قانونها ونظامها ... ، كأنها شجرة آجْتثّتْ من فوق الأرض مالها من قرار ...

ثم سأل « أبو أَيْمن » :

ـــ هل آستفْسرْتَ من مُدرِّسك عن حقيقة هذه الجاذبية ... وهذا من حقّك ؟

قال « أَيْمن » :

ـــ حاولْتُ ذلك ... ولكنّه تهرَّبَ من قوْل الحقيقة ؟

قال « أبو أَيْمن » :

ـــ وهل تَعْرِفُها أَنْتَ ؟

أجابَ :

ـــ نعم ... وبكُلّ فَخْرٍ وآعْتزاز ... وصِدْق إيمان ... ، لقد قَرَأْتُ ذلك في كتاب الله تعالى ...

فقال « أبو أَيْمن » :

ـــ عظيم ... عظيم ... أُتْلُ عَلَيْنا ذلك ...

أجاب « أيمن » بآستحْياء :

ـــ لاأحفظ الآية الشريفة ياأبي ولكنّي وَعيتُ مَعْناها : بأن الله تعالى هو الذي يُمْسِكُ بِقُدْرتِهِ – سُبْحانه – السموات والأَرْض ...

قال « أبُو أيْمن » :

ـــ هوِّن عليك ، فَأَنا سَأَتْلُوها :

﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأَرْض أَنْ تزولا ولَئِنْ زالتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنَ بَعْدِه إِنَّه كان حليماً غفوراً ﴾[1]

وكان « أَيْمَنُ » يُصْغي بكُلّ جوارحِهِ إلى أَبيه ... يَسْتَحْفِظُ الآيَةَ الكريمة ... ، وراح يُردِّدُ من غير توقّف ولا آنقطاع :

ـــ صَدَق الله العظيم ... صَدَق الله العظيم ...

وقال « أبُو أيْمن » يُخاطب « أيْمن » و« عائشة » :

ـــ هلاّ ركّزْتُما فَوْق رؤوسنا المظلّة ... ، فإنّ الشَمْس قد اشتدّتْ حرارتُها علينا ، وتكادُ تُلْهِبُ جُلُودنا ...

ثم طلب إلى « أمِّ أيْمن » أنْ تَسْتخْرِج « السَّانْدويتشات » لتناول الإفطار ، وتُفرِغ لهم الشّاي في الأَقداح ...

وتناوَلُوا طعامَهُم وشرابَهُم ...

ولمّا آنتهُوا قال « أبُو أيْمن » :

---

(١) سورة فاطرة الآية (٤١) .

ــ نَعُودُ إلى الحديث عن الْبَحْر وعالَمِهِ ، استجابةً لِرَغْبة عالِمتِنا وفيلُسوفتنا « عائشة » !!! وأَبْدأُ بقوْل الله تعالى :

﴿ وهُو الذّي سَخَّرلكُم الْبَحْر لِتأكُلُوا مِنْهُ لحْماً طريّاً وتَسْتَخْرجُوا مِنْه حِلْيَةً تَلْبَسُونهاوترى الْفُلْك مواخِرَ فيه ولِتَبْتغُوا من فضْلِهِ ولعلَّكُم تَشْكرون ﴾[2]

وما كاد « أَبُو أَيْمن » يَنْتهي من تلاوة الآية حتى قالت « عائشة » في سذاجةٍ وبراءة :

ــ أنا أُحبُّ الأَسْماك جدّاً ...

فقالت « أمُ أَيْمن » :

ــ سوْف يكون غداؤنا اليوْم إن شاء الله ...

وتابَعَ « أَبُو أَيْمن » :

ــ وكما تروْن أيها الأعزّاء في عالَم الحيوان البريّ فصائل وسُلالاتٍ وعوالم مختلفة ، منها الأليف ومنها المتوحِّش ، ومنها الدابُّ على الأرْض ومنها الزاحِفُ والطائر ، كذلك الأمْر في عالم الأحياء المائية ... ، تختلف أجناساً وألْواناً ووداعةً وقسْوةً ... ، تَزْخَرُ بها الْبِحَار وتتنقَّل جماعاتٍ في المواسم مهاجرةً أو ساعيةً وراءَ الغذاء ...

وأَكْثَرُ غذائها إنّما يكون في سَطْوِ الكبير على الصغير والقويّ

---

(٢) سورة النحل ، الآية (١٤) .

على الضّعيف ، وقد يكونُ قُوتها من الحشائش والنباتات التي حَمَلَ إلَيْنا « أَيْمن » نموذجاً مِنْها ...

قالت « عائشة » :

ــ إذاً ... فالْمَثَلُ الذي نردّده أو نَسْمعُهُ حقيقة ؟

قال « أبوأَيْمن » :

ــ وما هُو ؟

قالت :

ــ إذا سطا قَوِيٌّ على ضَعيفٍ ، فَأَكَلَ حَقَّه ، أو أَغْتَصَبَ ماله ورِزْقه قُلْنا فيه : (مِثل السَّمك بياكُل بَعْضه ..)

قال الوالد :

ــ هذا صحيح ... ، أما النّباتاتُ البحريَّة فَبَعْضُها « صحراويّ » !!! وبَعْضُها « صَخْري » !!!

قال « أَيْمن » :

ــ لقد لاحَظْتُ ذلك ياأَبي وأَنا أَغطس في الماء ... إلى القاع ... ، وبَعْضُ ما حملتُهُ كان من الأَرْض الرمليّة ... والآخر آقتَلَعْتُهُ من الصَّخْر ... ،

قال « أبو أَيْمن » :

ــ هل لاحَظْتَ شَيْئا وأَنْتَ تَشُدُّ الحشائش لِتَقْتلعها ..؟

قال « أَيْمن » :

ـــ نَعَم ... فقد كانَت النباتاتُ الرمْليَّة سهلة الْقَلْع .. ، أما الصّخْريَّة فكانَتْ على نَوْعَيْن ، بَعْضها سَهْل والآخر يحتاجُ إلى شَدِّ وجَذْبٍ وقُوَّة ...

قال « أبو أَيْمن » :

ـــ أما بعض النباتات البحرَّية الصَّخْريَّة ... فَيَبْدو لك أَنَّها حشائش ، والواقع أَنَّها حيوانات تَلْتَصِق بالصَّخْر ... مِثْل الإِسْفَنْج ...

وكذلك بَعْضُ القواقع ...

وأَمْسَكَ « أَبو أَيْمن » بيدِهِ واحدة منها ، مما حَمَله معه « أَيْمن » وقال

ـــ هذا نَوْع يعيش في داخله حيوانٌ بَحْري ، تَلْتَصِقُ فُتْحةُ قوْقعته بالصَّخْر ...

قالت « عائشة » :

ـــ كيْف تتنفَس ؟ وكيْف تَتَغذّى ؟ وكيْف تعيش ؟

وَرَدَّ « أَبُو أَيْمن » :

ـــ أُذَكّرك يا« عائشة » بِقَوْل الله تعالى :

﴿ وكأَيِّنْ من دابَّةٍ لا تَحْمل رِزْقها الله يَرْزقُها وإيّاكم ﴾[1]

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية (٦٠) .

وبِقَوْلِهِ تعالى :

﴿ ومامِنْ دابَّةٍ إلاّ على الله رِزْقُها ﴾[1]

وبقَوْل الله تعالى على لسان « لُقْمان » وهُو يَعِظُ ٱبْنَهُ :

﴿ يابُني إِنّها إن تَكُ مِثْقال حَبَّةٍ من خَرْدلٍ فتكُنْ في صخْرةٍ أَوْ في السماوات أَوْ في الأَرْض يَأْتِ بها الله إنَ الله لطيفٌ خبير ﴾[2]

والدّابَّةُ ... كلّ مايدبّ ... سواء في البرِّ أو في الْبَحْر ... ،

الله تعالى رازقها ، وهو الذي يُمدُّها بأَسْباب الحياة والبقاء ...

الكبيرُ منها والصَّغير ، مهما دقّ حَجْمُهُ ومهما صَغُر جِسْمه ... ،

الله تعالى يعلم مُسْتَقَرّه ومستودَعه ، ولا يَعْزُب عن عِلْمِهِ مِثْال ذَرّةٍ ... في السموات والأرض ، حتى ولوْ كان مثْقال حبّةٍ من خَرْدل ، مُلْتصقاً بالصَّخْر أَوْ في جَوْفِهِ ... ، فالله جَلَّ جلالُهُ لطيفٌ خبير ...

ولَعَلَّ رُوادّ المعرفة والبحوث يُدْركون هذا في مجالِ دراساتهم واستطلاعاتهم ، وكمْ مِنْ سِرّ من الْأَسْرار في هذا الكوْن العظيم مايزالُ خافياً عَلْيهم .. !!

---

(١) سورة هود ، الآية (٦) .

(٢) سورة لقمان ، الآية (١٦) .

ونَظَر « أَيْمَنُ » إلى المحارات وقال :

ــ وهذه المحارات ياأبي ، ذات الْفَلْقَتَيْن ... لقد حاوَلْتُ فَتْحها بيدي فلم أَسْتَطِعْ ...

فتناول « أبو أَيْمن » إحْداها ، وعالَجَ طرفها بالسكّين حتى فَتَحها ، فإذا في داخلها حيوانٌ ...

فقـال :

ــ هذا حيوانٌ بحريٌّ لَحمُهُ طريٌّ يُؤكل ... ، لكن هُناك أَنْواعٌ من المحارات والْأَصْداف تحْمل في جَوْفها حيواناتٍ لاتُؤكل إنّما تُتَّخذُ لِلزّينة ...

فقالت « عائِشةُ » بَفَرْحةٍ ، وكأنها اكتشفت شيْئا :

ــ إنَّهُ اللُّؤْلُؤ ...

وأَرْدَفَتْ تسْأل :

ــ ولكنْ ما المْرجانُ ياأبي ؟ هَلْ هو حقيقة شِعابٌ متصخّرةٌ تُشْبِهُ أَغْصان الْأَشجار ، لها عُمْر زمنيّ محدود لِتُصْبح بعده صالحةً لِلّقْطع والزينة ؟

قال « أبو أَيْمن » :

ــ تماماً – ياعزيزتي – وَأَوَدُّ لَفْت انتباهكما إلى الْبَرْنامج العلمي عن عالم الْبحار الذي يُقدَّم على شاشَةِ التلفزيون أسْبوعيّاً ففيه الكثير من الفائدة ، خصوصاً عند ربط ماتُشاهدان بقَدْرة الخالق عَزّ وَجَلّ ، وعَلّمِهِ سُبْحانه ، وقدرتِهِ جَلَّ جلاله ...

ونظر « أبوأَيْمن » إلى ساعتِهِ وقال :

ــ يكفينا الآن هذا الحديث عن الْبَحْر ... ، وهو عالَمٌ فيه الْعَجَبُ العُجاب ... ، والأَسْرارُ والألغاز ، على السَّطْح وفي الْأَعْماق ...

كُلُّه يُمجِّد الله تعالى ويقدِّسُه ، ويُسبِّحُ لَهُ .

قالت « أُمُّ أَيْمن » وهي تستعدُّ للقيام والعودة إلى الدار :

ــ لا إِلٰه إلاّ الله ...

﴿ هذا خَلْق الله فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الّذين من دُونِهِ .. ﴾[1]

---

(١) سورة لقمان الآية (١١)

وفِي أنْفُسِــكُم ...

أَفَــلا تُبْصِرُون !؟

﴿ بسم الله الرَّحْمٰنِ الرحيم ﴾

﴿ وفي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقنين * وفي أَنفُسِكُم أَفَلا تُبصرون * وفي السَّمٰاءِ رِزْقُكُم وما تُوعَدُون * فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَالْأَرْض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ماأَنَّكُم تَنْطِقُون ﴾

[سورة الذاريات : الآيات ٢٠-٢٣]

[﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾][1]

وفي اللَّيْل جَلَسَ أَفْراد الأُسْرة على الشُّرْفَةِ لِيَسْهروا ويسْمروا ...

ماعدا « أَيْمَنُ » فقد غابَ من بَيْنهم ...

كان مَشْغُولاً بمشاهدة برنامجٍ عَلَى شاشةِ التِّلفزيون ، يمتزج فيه العلْم بالإيمان ، ويتحدَّثُ مُعِدُّه ومُقدِّمُه عن [العيْن] ... ، أَجْزائها ... وتركيبها ... وكيفيَّة الإبْصار ...

وناداهُ والده لِيجّلِسَ معهم فيكْتمل شَمْلهم ... ، إلْا أَنَّه آستأْذَنَ ريْثما يَنْتهي البرنامج ، ولَحِقَتْ بِهِ « عائشة » ، فجلَست معه تُشاهد وتَسْمَع ...

ثم عاد الْأَخوَانِ إلى حَيْث يجلس الوالد والوالدة ، وآنْضَمّا إِلَيْهما ، ولسانيْهما لايكفّ عن التَّرْداد :

ــ لا إِلٰه إلاّ الله ... لاإِلٰه إلاّ الله ... ، سُبّحان المكوِّن !!! سُبْحان الْمُبْدع !!! سُبْحان الخالق !!!

قال « أَبو أَيْمن » :

---

(١) سورة التين ، الآية (٤) .

ـــ يَبْدو أَنَّ الموضوع قد أَثّر فيكما تأثيراً شديداً * وأثار في نَفْسيْكُما كوامِنَ الإيمان حتى لَهِجَ لسانُكما بالتَّهلْيل والتَّسْبيح ...

قال « أَيْمن » :

ـــ أَجل يا« أبي » ، ويَشْهد الله أنّني كُنْتُ أُحِسُّ مع كُلّ كلمةٍ وصوُرةٍ بِفَيْضٍ عارِمٍ من التوثُّب والإِثارة ... فَأَزْدادُ إصغاءً ... وآقتراباً من الجهاز ... ، وكأنّي أُريدُ أَنْ أَحْتَضِنَ لمتحدّث ... إمْتناناً وإعجاباً ...

وقالت « عائشة » :

ـــ كيْف تُسَوِّلُ لِلأنسانِ نَفْسُهُ أَنْ يكفُرُ ويُشْرِك بالله ، وَهُوَ في خَلْقِهِ وتكوينِهِ من أَبْدع آيات الله سُبْحانَهُ ...

لقد كان موضوع البرنامج ياوالدي عن [الْعَيْن] ، وسيلة الإبْصار والرُّؤْية ... ، ولقد أفاض المتحدِّثُ في الشَّرْح والبيان ...

وأَخَذَتْ « عائشَةُ » في رواية ماسَمِعتْ وشاهَدَتْ لوالديْها ، يُعِينُها أَخُوها «أَيْمنُ» في بَعْض المواقف ...

حتى آنْتهيا ...

قال « أبو أَيْمن » :

ـــ « العيْن » ... جُزْء من كيانٍ عام ، هُوَ الإنسان ، وإذا كُنْتما قد رأَيْتما وسَمِعْتُما من على الشاشة الصغيرة حوْل العيْن ماأَثاركما إلى هذا الحدّ ، فإنّ الإنسان كَكُلٍّ فيه الآيات البيِّنات ...

وكذا ... ، فإنّ الله تعالى قد خاطَبَ الإنْسان الذي شَذَّ عن

الصّراط السَّوِيّ عَبْر التاريخ فَأُنكر وآسْتنكر ، وتحدّى وتنكّر ... ، وكَفَرَ وأُدْبَر ، وطغى وتجبَّر ... ، خاطَبَهُ أَنْ يَنْظُرَ في السموات ... – وقد تحدّثْنا عن ذلك – ، ثُمَّ أَعْلَنَ له بِأَنّ في الْأَرْض التي يعيشُ على سَطْحها ، والتي سُخِّرتْ له بِكُلّ مافيها وعَلَيْها ... آياتٌ وعلامات – وهذا تَحدَّثْنا عنه أَيْضاً –

لكن هذا الإنسان الكافر النّافر ظَلَّ يَتَأَرْجَحُ في تيّار الوسْوسةِ الشَّيْطانيّة ، ويَجَمَحُ بهواهُ في طريق الخصومة والتَّحدِّي ، ويُصِرُّ معانِداً على الْخُصومةِ للّه تعالى ... ، الخالِق المَبْدع ...

عِنْدَ ئِذٍ كان لابُدَّ من الْعَوْدة ...

العوْدة من السَّماء وإِعْجازها ، والأرض وآياتها ، إلى الذّاتِ الإنسانية ، والكيان البشريّ ، لعلَّ في قُرْبِها وآتّصالها مايهزُّ الوجْدان هزّاً عنيفاً قويّاً ، فقال تعالى :

﴿ وفي أَنفُسِكُم أَفلا تُبْصِرون ... ﴾

قال « أَيْمن » :

– إِنها صيغَةُ آستِفْهام ياأَبي ...

فقال « أَبُو أَيْمن » :

– نعم ... ولكنه فيه الاستنْكار أَيْضاً ... ، الاستنْكار على الإنسان الحيّ العاقل ، الّذي كان خَلْقُهُ من نُطفةٍ مِن ماءٍ مهين ، ثُمّ جعله اللّه تعالى بِقُدْرِته وإرادتِهِ في أَحْسَنِ تَقْويم ﴿ **لَقَد خلقنا الإنسان**

في أَحْسَنِ تَقويم ﴾ ... ، فإذا هُو خصيمٌ مُبين !!!

يَقُول الله تعالى في نهاية سُورَةِ [يٰس] :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ من نُطْفَةٍ فإذا هُو خصيم مبُين ﴾!!!

كيْف ...؟؟

إنّهُ يُنْكر على الله تعالى الذي خَلَقه فَسَوّاه أَنْ يَبْعَثَه...، وأَنْ يُحّييهِ بعد الموْت ، ناسياً نَشْأَتَهُ وتكوينه :

﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقه قال منْ يُحْيي الْعِظامَ وهي رميم * قُلْ يُحْييها الذي أَنْشَأَها أَوّل مَرَّةٍ وهُوَ بكُلّ خَلْقٍ عليم * الذي جَعَلَ لكُم من الشَّجَر الْأَخْضر ناراً فإذا أَنْتُم مِنْه تُوقِدُون * أَوَ لَيْس الذي خَلَق السماواتِ والْأَرْض بقادِرٍ على أَنْ يخلق مثلهم ... بلىٰ وهُو الخلاّق العليم * إنّما أَمْرُهُ إذا أراد شيْئاً أَنْ يقُولَ لهُ كُنْ فيَكُون * فَسُبْحانَ الّذي بيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَيّءٍ وإليْه تُرْجَعُون ﴾[1]

* * *

(١) سورة يسٰ الآيات (٧٧-٨٣) .

قالت « عائشَةُ » :

ــ لو نَظَر الإنسان بإمْعانٍ إلى تكوينه ومَظْهَرِهِ ، من قِمة رأْسِهِ ومنبت شَعَرِهِ إلى أُخْمصِ قدميه ... ، إلى آستوائِهِ وآنْتصابِهِ ، إلى الرأْس والعُنُق ، إلى المنكبيْن والذراعين واليديْن والأصابع ، إلى الصَّدْر والقفص العظميّ الذي يحْمي ما في الداّخل ، إلى فخذيْه وساقيه وآمتدادَ قَدَميْه ، وتَأَمَّل في حَرَكات الأعضاء والأجزاء ووظائِفِها ، لَرَدَّدَ قوْل الله تعالى ، بإيمانٍ وَصِدْق :

﴿ لقد خَلَقْنا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْويم ﴾

وصَدَق الله العظيم ...

* * *

قال « أَبُو أَيْمن » :

ــ هذا يابُنَيَّتي جُزْءٌ من الحقيقة ، وهناك أَجْزاء أُخْرى ، تتعدّى الْمَظْهرَ إلى الْمَخْبرَ ... ، إلى الدَّاخل ، إلى عظيم تَقْويم الله تعالى للإِنْسان ...

لقد آسْتمعْت اليوْم وشاهَدْتِ حديثاً عن [العيْن] ، ولكن هناك السَّمْع ، والقلْب .. ، والرِّئتانِ ، والجهاز الهضميّ ... و ... وغيرها كثير ...

وَلَسَوْفَ نتحدَّثُ عنها في أوقاتٍ أُخرى إن شاء الله تعالى ...

وتُصبِحُونَ على خيْر ...

* * *

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْع والْأَبْصار والْأَفْئِدَة ... قليلاً ما تَشْكُرون ﴾

وآنْشَغلت « أُمُّ أَيْمن » بأَعْمال الدّار ، تُنَظِّف وترتّب وتحضّر الطعام ...

وجَلَسَ « أَبُو أَيْمن » على الْأَريكة يُرْسِلُ ببصرِهِ إلى الْبَحْر الواسع المُمْتَدّ ... ، وإلى جانبِهِ « أَيْمن » ... ، أَمّا « عائِشَةُ » فكانَتْ تُساعِدُ أُمَّها ...

وبعد فَتْرةٍ جاءَتْ « عائِشة » وقد أَنْهَتْ ما أُوكل إليْها من عَمَل ... ، جاءَتْ لِتَسْتريح ...

فقال لها والدها :

ــ أَيْن مصْحفك يا« عائشة » !؟ هاتِهِ ...

فلما أَحْضَرتْهُ ، طلب إليْها أَن تَفْتَح على سورة (السَّجْدة) وتتْلُو صَدْرَ آياتها ؛ فقالت :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم *
أَلم * تَنْزيلُ الكتابِ لا رَيْب فيه من رَبِّ العالمين * أَمْ يَقُولُون آفْتراهُ بل هُوَ الحقّ من رَبِّك لِتُنْذِر قَوْماً ماأَتاهُمْ من نذيرٍ مِنْ قَبْلك لعلَّهُم

يَهْتدون * الله الذي خَلَق السماواتِ والْأَرْض وما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيّام ثُمّ آسْتَوى على الْعَرْش ما لَكُمْ من دونِهِ من وَلِيٍّ ولا شفيع أَفَلا تَتَذكّرون * يُدَبِّرُ الْأَمْر من السّماءِ إلى الْأَرْض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْه في يَوْم كان مِقْدارُهُ أَلْف سنةٍ مِمّا تَعُدُّون * ذلك عالِمُ الغيْب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أَحْسَنَ كُلّ شيْءٍ خَلْقَهُ وبَدَأ خَلْق الإنسان من طين * ثم جَعَل نَسْلَهُ من سُلالةٍ مِنْ ماءٍ مَهين * ثُمّ سوّاهُ ونَفَخ فيه من رُوحِهِ وجَعَلَ لكم السَّمْع والْأَبْصار والأفْئِدَة قليلاً ماتَشْكُرون﴾[1]

وقال « أَبو أَيْمن » :

ـــ صَدَق الله العظيم ...، هذا يكفي ياآبنتي ...

إنّ مايهمّنا من الآيات الكريمة هو مايتعلّق بموضوعنا – رغم أَهمِيْتها جميعاً – ، والتي تتحدَّثُ عن الأسْماع والأبصار والْأَفئدة ، ولقد مهَّد الله تعالى لها بحقائق أساسيّة ، فَلْننظر إليها ونرْبط بينها وبَيْن المقدّمات ...

يقول الله تعالى عن ذاتِهِ – جَلَّ جلالِهِ :

---

(١) سورة (السجدة) الآيات (١–٩) .

﴿ الَّذي أَحْسَنَ كَلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ... ﴾

والإحسان في كَلّ خَلَقٍ من خَلْق الله - سُبْحانه - واضحٌ وبيِّن ، يَظْهَرُ في الْقَصْدِ والْهَدَف ، والْتركيب ، وتلازم الجزئيات وتعاوِنُها ... ، مهما كَبُر أو صَغُر المخلوق .

﴿ هَلَ ترى في خَلْق الرحمن من تَفُاوت * ثم آرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْن يَنْقَلِبْ إليك الْبَصَرُ خاسِئاً وهو حسير ﴾

والإنسان ... الخلِيفة على الْأَرْض ... ، هُوَ أُرْقى أُنْواع المخلوقات

لذا يَقُول الله تعالى ، بعد الحديث عن الإحْسان في الْخَلْق :

﴿ وبَدَأَ خَلْق الإنسان ... ﴾

وحَدَّد سبحانه وتعالى ما هيَّة التكوين الجسدي للإنْسان فقال

﴿ مِنْ طين ... ﴾

وبعملِيَّةٍ تحليليَّة لهذا التكوين المادّي ظَهَرَ أَنَّهُ ذرّاتٌ مِنُ ترابيَّةِ الأرض وعناصِرِها ، قد جُبلتْ بالماء فصارت طيناً ...

وفي حديثٍ عن الكيفيَّة المرْحلَّية الّتي يمرُّ بها تكوين الإنسان ، يحدِّثُنا الله تعالى ، وفي أكثر من موضعٍ في القرآن الكريم ، عن ذلك ...

ويقول هُنا :

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلالةٍ من ماءٍ مهين ﴾

إذاً تكوين « آدم » – أبي الْبَشَر – عليه السلام ، يَخْتلفُ بَدْءاً عن سلالتِهِ وذُرِّيَّتِهِ ... ، لقد قَبَضَ الله تعالى قَبَضةً من تُراب ، ثم سوّاها ونَفَخَ فيها من رُوحِهِ وقال لها : كُوني « آدم » فكانَتْ ...

أما الذريَّة أو النَّسْل ، فهي من سُلالةٍ من ماءٍ مَهين ...

والسُّلالَةُ ما يُسَلُّ ، أيْ يُؤخَذ ... ، فالنُّطْفَةُ مأْخُوذة من الماء المهين ... أي الحقير ، وهُوَ حقيرٌ مَبْنىً ومَعْنىً ...

﴿ ثمَّ سَوّاهُ ونَفَخَ فيه من رُوحِهِ ... ﴾

والتَّسْويةُ هي المراحل التي تمرُّ بها النُّطفَة ... ، لِتُصبِحَ خَلْقاً سَوِيّا ... من بدء الحمل إلى الولادة ... من نُطفَةٍ ... إلى عَلَقَةٍ ... إلى مُضّغَةٍ مخلَّقَةٍ وغَيْر مخلَّقَة ، إلى إنْشاء العظام ، ثم إلى كسائها باللَّحْم ... ، ثُمّ نَفْخ الرُّوح ... ، ثم إلى إنشائِهِ خَلْقاً آخر ...

* * *

في تلْك الَّلحظات كان « أيْمن » و« عائشة » يَسْتمعان ولا يتكلّمان ، مَأْخُوذانِ ... بالْحديث عن خَلْق الإنسان وتكوينِهِ ... ، يخْتزنانِ كثيراً من الأسئلة ولايُقاطعان بأنْتظار الوقْت المناسب ... لِيَسْتفّسرا وَيْعلما ...

في تِلْك اللحظات دَخَلَتْ على الحلقة « أُمُّ أيْمن » بعد أن

فرغت من الْعَمَل ... لم تَجْلس ... بَلْ ظلّت واقفةً تَسّمَعُ .. ، حتى إذا ما انتهى « أَبو أَيْمن » إلى قوْل الله تعالى :

﴿ثُمَّ أَنّشأْناهُ خَلْقاً آخر ... ﴾

خَتَمتِ الآية بِقَوْل الله تعالى :

﴿ فَتَبارك الله أَحْسَنُ الخالِقين ... ﴾

ثُمَّ جَلَسَتْ ... ، وكأَنّها في تلاوتها لختام الآيات قد فتحت مجال الحديث أمام « أُيْمن » و« عائشة » ، فقالت « عائشة » :

ـــ ما العلقة .. وما المضْغة ... وما مَعْنى المخلّقة وغير المخلّقة ... ؟

قال « أَيْمن » :

ـــ لقد سبقتني يا« عائشة » في الاستفْسار ... ، ولكْن نُريدُ أَوّلاً أَنْ نَستْوعب بقيَّة الحديث عن السَّمُع والْأَبصار والأفِئِدَة ... ، فإنها وإن تكُنْ أجزاء مادّية من أجسادنا ولكنّها ذات متعلقاتٍ مَعْنويَّة ... ، استطاع الْعِلْم الحديث اكتشاف بعض جوانبها ...

والْتَفَتُ « أيمن » إلى أبِيه ، وهُو يقول قولته الْأَخيرة ، وكأَنّه يستنطقه ؛

فقال « أَبُو أَيْمن » :

ـــ هذا صحيح ... ، فإِنَّ الأصوات – مَثَلاً – الَّتي تَصْدُرُ من هُنا وهناك وتَطْرُق الْأَسْماع ... ، ما هي إلاّ موْجات ... ، دائريّة ... ، تَتَسَعُ حتى تُلامِسُ طَبْلَةَ الْأُذُن ، وتدخُلُ إليها عَبْر طريقٍ

حلزونيّ الشَّكل ... حمايةً لهذا الغشاء الرقيق ... ،

وما عُرِفَ ذلك إلاّ بعد أنْ اسْتحدثت وابتكرت أجهزة التّسْجيل . وها هي تَتطوّر أشْكالَها وتترقى من الأسطوانةِ – مثلاً – إلى الشّرائط ...

* * *

وسَكَتَ قليلاً ، ثم أضاف :

ـــ وحين تحدَّث الله تعالى عن خَلْق الإنسان في أحْسَنِ تَقْويم ... ، ميَّز هذا الإبْداع بالأسْماع والأبْصار والأفئدة .. ، واعتبرها جَلَّ جلالُه – من أعْظَم النِّعم على الإنسان ... وهنا أُحِبُّ أنْ أسْتَشْهد بقول الشاعر :

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ فَلَمْ يَبْق إلاّ صُورَة اللَّحْم والدَّم

واللَّسان يا أعِزَائي هُوَ تُرْجُمان الأسْماع والأبْصار والأفئدة أيْضاً .. !!

قال « أيْمنُ » :

ـــ وهذه النِّعَمُ يا أبي تَسْتوْجِبُ الشُّكر ... والْحَمْد ... ، أما الإنسان الخصيم المُبين ، فَيَصْدُق فيه قوْل الله تعالى :

﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾

وقالت « أمُّ أيْمن » :

ـــ ويصدق فيه قوْله سُبْحانه :

﴿ وقليلٌ مِن عبادِيَ الشّكُور ... ﴾

وقالت « عائشة » :

ــ أُلاحظ ياأبي أَنَّ كياننا المادي خاضِعٌ في تصرُّفاتِهِ لإرادتِنا ... فالسَّعي على القدميْن مَشْياً ، أو التمدُّد على الفراش ، أو تناوُن الأشياء بالْأَيدي ... لايكُون إلا من خلال الإرادة ، وإرادتُنا تَخْضَعُ لِأَحاسيسنا ... ومشاعرنا ... فهي محل المسئوليّة ... ،

قال « أبُو أَيْمن » :

ــ لاتَسْتَرْسِلِي ياآبنتي فقد فهمْتُ ما تُريدين ... ، فالْأَفئدة مكْمن التَفاعُل ، ومَوْطن التأَثّر ، لذا يقول الله تعالى عن السَّمْع والْأَبْصار ... والْأَفئدة أَنّها جميعها تتحمَّل المسؤوليَّة والحساب ، ثواباً أَوْ عقاباً ...

﴿ إن السَّمْع وَالبصر والفؤاد كُلُّ أُولئك كان عنه مسؤولا ﴾

قال « أَيْمن » وهُو يهبُّ من مَقْعده وهو يقفز فرِحاً :

ــ أبي ... أبي ... الآن فَقَط أدركْت معنى آيةٍ كُنْت قد قَرَأْتُها ولم أَفْهمَ مضمونها ... ، وذلك حين تَشْهَدُ على الإِنسانِ يداهُ ورجْلاهُ ... ، ويَسْأَلها الإِنسان في عتاب : كيْف تَشْهد عليه وهي جُزْءٌ مِنْه .. !! فتَرُدُّ بأنه قد نَطَقَتْ بأَمْر الله تعالى الذى أَنْطَقَ كُلَّ شيْء ...

* * *

ونَظَر « أَبُو أَيْمن » إلى وَلَدِه وقد آنفرج ثَغْرِه عن ابتسامةٍ عَريضةٍ ، وأَمْسَكَ بيد « أَيْمن » وشَدَّهُ إليه وقبَّله ، ثم أَقْعَدَهُ إلى جانبِهِ - كما كان - وقال :

— إسْمعا ... يا« أَيْمن » ويا« عائشة » ... اسْمعا إلى العتاب الرقيق ... الزّاجر لِكُلّ ذي لُبّ وعَقْل ، اسْمعا إلى قوْل الله تعالى وهو يذكُر هذه النِّعَم على الإنسان :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ له عَيْنيْنَ * ولساناً وشفتيْن * وهديناه النَّجديْن * فلا آقْتَحَم الْعَقبة * وما أدْراك ما العقبة ... ﴾

لقد بَيَّنا للإنسان طريق الخيْر وطريق الشّر ... النَّجديْن ... ، وذلك بَعْد أَنْ جَعَلْنا له العيْن التي يُبْصر بها ، والأُذن التي يَسْمع ، والْقلْب الذي يُحِسُّ ويَشْعر ، والعقل الذي يُميِّز ... ، ثُمّ حَذْرناهُ من آقْتحام الصَّعْب ... والتوغل في الخْطر ... وسُلُوك طريق الشّر ..!! ففي ذلك الخسْران المبين ، في الدُّنيا والآخرة

والّقلْب - ياأَحِبّائي - تعرفُونَ شَكْله وأَجْزاءَه ومكانَهُ ودَوْرَهُ ...

وقاطعتْهُ « أُمُّ أَيْمن » :

— إنّي أَشُمَّ رائحة الطّعام .. ويَبْدو أَنَّه نَضَجَ ، وسأَقُوم لإعدّاد المائدة ... ، هيا يا« عائشة » لِتُساعديني ، وتستطيعُونَ أَنْ تكْملُوا الحديث بَعْد الْقَيْلُولة ...

[الْمَصنَعُ الربّانيُّ العظيم !!!]

وصَرَخت « عائِشةُ » :

ــ آخ :... ، لَقَد جُرِحَتْ يدي ...

كان أَفْرادُ العائلة قد نَزلُوا إلى الشّاطىء ، ونَشَروا فوقَ رؤوسهم مِظَلّتهم ، وبَسَطُوا من تَحْتِهِم مِلاءَةً ... يتناولُون بعض الفاكهة ... ويَسْتَمْتِعون بنسيم الْبَحْر ونَداوة الجوِّ ... وكانَتْ « عائِشةُ » تَقْطع تُفَّاحةً بسكينٍ حادَّة ، ولم تَنْتَبِهِ لِتَحْذير الأُمّ ... فجرحَتْ يَدَها وسال الدَّمُ ...

وأَسْرَع « أَيْمَنُ » إلى الدارْ وأَتى برباطٍ وعقاقير ...

وعالجت الأُمُ الجرح الذي لم يكُن خطيراً ... ،

ونظر « أَبو أَيْمن » إلى « عائِشة » نظرة عتابٍ وقال :

ــ كان عليْك يا« عائشة » أن تسْمعي كلام أُمّك وتحّذري .. ، لِقَدْ ضَيّعْتِ على نَفْسِكِ كُلّ ماتناوَلْتِهِ من غذاء ... ، إنْ طعامك في وَجْبةِ الغداء قد ذَهَبَ هَدْراً بَسبب هذه النُّقاط من الدّماء التي سالَتْ من جُرْحك ... ، والتي قام بإِنْتاجها الْمَصْنَع الرّبانيَّ العظيم ، الذي آستوْدَعَهُ في أَحْشائنا ...

وقال « أَيْمن » :

ــ أَلَيْس هُناك ياأَبي مصانع لِلدَّم .. !؟

قال « أَبو أَيْمن » :

ـــ رغم الإنجازات العلميَّة المعاصرة في مُخْتلف المجالات مايزال عِلْم الإنسان قاصِراً عن صناعةِ نُقْطة دَمٍ واحدة ...

تَصَوَّروا لُقْمَةَ طعامٍ ، من لَحْمٍ وخُبْز ، أَوْ غير ذلك ، يضعها الإنْسان في فَمِهِ ، ولْنُتابع مَعاً المراحِلَ التي تمُرُّ بها حتى تتحوَّل إلى نُقطة دم ... !

أَوَّلاً : تُقَطِّعها الأسنانُ الأماميّة التي تُسمّيّ القواطع .. ، ثُمَّ تمزّقها الأَنْياب ، وتطحنُها الأَضراس ، وهي في كُلّ ذلك تمتزِجُ باللُّعاب تُفرِزُه غَدَدٌ كامنة في الْفم ...

حتى تُصْبح كُتَلةً تُشّبهُ العجينة ... ، ويَقْذِفها اللِسانُ بعد ذلك إلى الْمريء ... وهُنا لابُدَّ من الملاحظة بأَنَّ المرىء والقصبة الهوائية متوازيان مُتّصلان ، يفصل بينهما قِطْعَةٌ من اللَّحْم تُشْبه « الصَّبّاب » — عند البّلعُوم ... ، فلكُلٍّ من الجهاز الهضّمي والجهاز التنفَسي سبيله ...

* * *

وتَصِلُ إلى المعدة وهناك تَختلِطُ بإفرازاتٍ من (البنكرياس) (الحليْوات) ، و(الكبد) ، وتبدأ عمليَّة الْهَضْم حتى يُصْبح الطعام سائلاً كأَنَّه الحليب ، ويُسمّى (الْكيلُوس) ، ثم يتدفّق هذا السّائل إلى الأمعاء الدقيقة ... ، وهناك تتِمُّ عمليَّةُ الْفَرْز . ، حيْثُ تَعْمل ملايين الشُّعيْراتِ الدقيقة في آسْتخلاص الدَّم وإقصاء النَّفايات ... سواء إلى الكلى والمثانة أو إلى الأمعاء الغليظة ...

أما الدَّم فَيأْخُذُ طريقه إلى الْقَلْب عَبْر الشرايين ...

وهناك المضخّة الهائلة ... ليْس حَجْماً ولا وَزناً .. ولكن قُدْرةً وآسْتَمراراً وتدفُّقاً ... عَبْر الأَوْرِدَة التي تدقّ وتدقُّ حتى لا يُرى بعْضها إلا بالمجْهر ... إلى مختلف أنحاء الجسم يمِدُّه بالقُوَّة والعافية ...

ويُسْترجَعُ ذلك إلى الرئتيْن في عملية تصْفية وتطهير وإنْقاء ... فسُبْحان الخالق ، وسُبْحان الصّانع ...

وردَّد الجميع :

لا إله إلاّ الله ...

* * *

قالت عائشة » :

ــ إذاً كيْف يُعّطونَ بَعْض المرضى ، أثناء إجراء العمليات الجراحية ، مايحتاجُونَ إليْه من دم .. ، ومن أَين يأْتُون بِهِ ؟

قال « أَبو أَيْمن » :

ــ أوَّلاً ... ليسَ دماءُ الناس من فصليةٍ واحدة ، فهي فصائل وأَنْواع ، وقد تَخْتلف في الأُسّرة الواحدة ، ولايَصْلُح للمريض الذي يحتاج إلى دَمٍ ... إلاّ ما كان من فصيلتِهِ ...

وثانياً هُناك « بُنوك للدَّم » تأْخُذُ الدّم من المتبِّرعين وتجعله في قوارير وتخزّنه تحْت دَرَجة حرارةٍ معيّنةٌ تحفظه طويلاً ...

* * *

[﴿ بَلىٰ قادرين على أَنْ نُسَوِّيَ بنانَهُ ..﴾]

وتناوَل « أَبوأَيْمن » يَدَ آبنته « عائشة » يَنْظُرُ إلى مكان الجرْح ، وليطمئنّ إلى الضّماد ... ، وزوال الأَلْم ...

ثُمَّ قال :

ـــ لقد ذكرني مَنْظَرُ أصابِعِك يا« عائشة » بِأَمْرٍ يتعلَّق ببديع صُنّع الله تعالى في تكوين الإنسان ... ، بأطراف أصابِعِه الّتي تُعْرف بـ « الْبَنان » ...

* * *

تصّوروا ياأَعِزّائي أَنَّ التَقدُّم العلميّ الهائل في كُلّ مَيْدانٍ مايزال قاصِراً عن بَعْض الْأُمور ...

مَثَلاً ... في اكتِشاف الجريمة ... ، ماتَزال أَجْهزة التّحقيق في كُلّ بِّلْدانِ العالم تَعْتمد أَساساً على تصّوير الْبَصَمات ... ، وتحْليلها ...

لمــاذا ... ؟

لِأَنَّ كُلّ بَصْمة بنانِ إنسان تَخْتلف كُلِّيةً عن بَصْمةِ الآخر ...

الَّذين وُلِدوا وماتُوا منذ ملايين السِّنين ... ، والذين هُم على قَيْد الحياة ... ، والَّذين سَوْف يأْتُون ...

كُلُّ أولئك ليس في واحدٍ منهمُ رسُوم بنانٍ – طرف اصْبع – تُشبه الآخر ...

وفَتَحَ «أَيْمَنُ» و«عائشة» أَعْيُنَهُما ... واتّسعَتْ أَحْداقُهُما ...

وتطاولا بأَعْناقهما ... وكادا يَقفانِ وقد شَدَهَهُما الْقَوْل ... وقالتْ «عائِشة» في تعجُّب :

ـــ كُلّ الناس ياأبي ... !!! كُلّ الآدميين !!! من آدم – عليه السلام – إلى أَنْ يَرِث الله الأَرْض ومَنْ عَلَيْها ...!!!

فقال «أَبو أَيْمن» :

ـــ نعَم ... ولاتعجبي من هذا يا«عائشة» ... لِأَنَّ الْأَعْجب مِنْهُ هو في التَّحدي الإلٰهي لِلْعُقول المريضة والقلُوب النافرة الكافرة ، التي أَنكَرَت الْبَعْث والإِحياء ، والقيامة ليوْم الحسابِ ... ، فتحدّاها الله تعالى بِأَنَّه لايتوقَّف أَمْر إحيائِهِ للأموات عند حُدُودِ أَشَخّاصهم وأرواحهم وأشكالهم فقط ... بل يتجاوزُ ذلك إلى تمايُزهم عن بَعْضَهِم حتى بالْبَنان ... ، فقال لهم :

﴿ بلى قادرين على أَنْ نُسَوِّي بنانَه ﴾ ...

أما الحديث ياأَبْنائي عن الإنْسان في تكوينه فَيطُول ويَطُول كثيراً ...

ففي كل جُزئيَّةٍ مِنه حقيقة تشهد لِلّه جَلَّ جلالُه بالْقُدْرة والتفرَّد ...

ولايُمْكنني أن أفيض في هذا ، فإنّ له أَهْل اخْتصاص وعِلْم ومَعْرفة ، ويكفيني ماأَوْرَدْت لكما في هذا المجال ...

* * *

قال « أَيْمن » و« عائشة » بلسانٍ واحد ، مَنْطق واحد :

ــ يكفي .. يكْفي ...

و : لا إِلٰه إلا الله ... ، تقدّسَتْ أسماؤه وصفاتُه ، وَجَلَّ جلالُه ، سُبْحانه وتعالى عمّا يَصِفون ....

* * *

وإلى اللقـاء مع

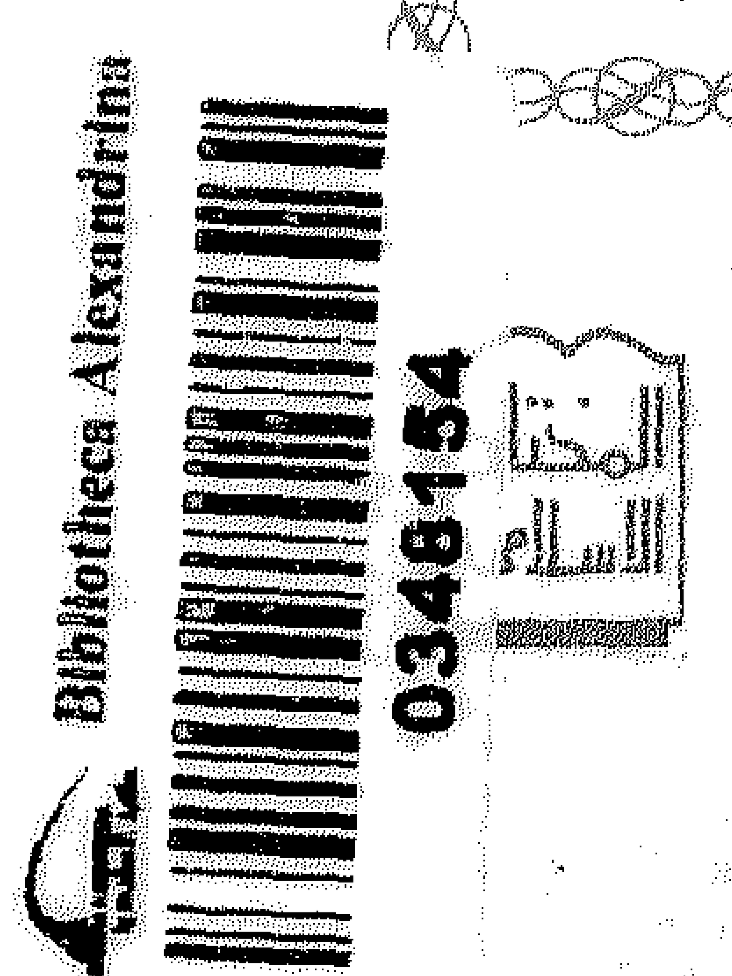
محمّد رسُول الله

و : [صلوا على النبى]

الفهرس

هذا الكتاب

* وحد الدايم .
* قل انظروا ماذا فى السماوات .
* وكل فى فلك يسبحون .
* رب المشرقين ورب المغربين .
* لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر .
* ربنا ما خلقت هذا باطلاً .
* وفى الأرض آيات للمؤمنين .
* اترى الأرض هامده .
* يخرج الحى من الميت .
* وما من دابه فى الأرض .
* والأرض ذات الصدع .
* والجبال أوتادا .
* وعنده مفاتيح الغيب .
* وفى أنفسكم أفلا تبصرون .
* لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم .
* وجعل لكم السمع والأبصار والآفئدة .



١٧٥ قرشا